مشاكل اللغة العربية

دكتور كمال بشر

* الدكتو كمال بشر
* عميد كلية دار العلوم بجامعة القاهرة
* له مؤلفات في علم اللغة واصوات اللغة
* وهو الان استاذ بمعهد تعليم اللغة العربية للاجانب في الرياض .

مشكلات اللغة العربية مشكلات كثيرة فهناك تبادل كامل بين اللغة واصحابها، ذلك لأن اللغة ما هي الا ظاهرة اجتماعية تؤثر في المجتمع وتتأثر به ، فهناك تبادل كامل بين اللغة واصحابها ، واذا كان لنا ان نعرض بعضا من هذه المشكلات، علينا ان نصنفها الى اصناف وفقا لفترات الزمن ، هناك مشكلات قديمة ، واخرى مشكلات حديثة ، ومشكلات حديثة ، ومشكلات فورية ، نتجت في هذه الاونة بالذات ، او ظهرت لنا واضحة في هذه الاونة بالذات ، اما المشكلات القديمة ، فهي في رأيي مشكلات منهجية ، ترجع الى منهج البحث في اللغة العربية في القديم ، وهذه المنهجية فيها ثلاث نقاط معينة ، علينا ان نشير الى كل منها اشارة خفيفة لطيفة لنتعرف على هذه النقطة المنهجية وعلى اثار هذا العمل المنهجي في القديم، ان علماء اللغة العربية - بلا شك - اجادوا واحسنوا كل الاجادة وكل الحسن في كل ما قاموا به نحو لغتهم ، فهي لغة القرآن لغة دستور الاسلام ، جهدوا أنفسهم وعملوا اعمالا وقاموا بأعمال رائعة فائقة في خدمة هذه اللغة ، لغة العرب ولغة الاسلام ، ولغة القرآن الكريم ، غير ان هناك جهات معينة اوزوايا معينة نستطيع ان نتلمسها او ان ننفذ منها ، مبينين ان هناك مشكلات من نوع معين ، من ذلك - مثلا - علماء العربية ، حرصا منهم على سلامة اللغة وفصاحتها - وهذا لا بد ان نصرح به وان نعترف به - درسوا اللغة العربية كما لو كانت شيئا واقفا او شيئا جامدا غيرمنظور ، ذلك لانهم حين قعدوا القواعد ووضعوها ، لم ينظروا الى العربية على انها امتداد لنفسها ، او على انها تمتد الى اخواتها الساميات في القديم ، وكان المفروض كما - هو مفروض الان - على كل باحث ، حين يبحث في ظاهرة لغوية ان ينظر في القديم والحالي ، وانيتنبأ بالمستقبل ، لتكون هناك سلسلة متصلة . فهم أخذوا العربية كما لو كانت وحدها في الميدان ،وارادوا ان يقعدوا هذه القواعد ، لو نظروا في اللغات السامية ، ولو نظروا في اللغة العربية في فترات اسبق ، لاستطاعوا ان يتوصلوا الى حل بعض المشكلات فهناك

مشكلات لغوية وقفوا فيهاوقوفا جامدا ، ولم يستطيعوا ان يأتوا فيها برأي حاسم بسبب ان هذه المشكلات في الواقع ترجع الى تاريخ قديم ، فهناك في الاصوات مشكلات ، وهناك في الصرف مشكلات ، وهناك في النحو مشكلات ، والواقع انهم لو نظروا في القديم لاستطاعوا حل بعض هذه المشكلات . هناك خلاف كما نعلم في نطق بعض الاصوات ، في القاف والجيم والثاء والدال والظاء والضاد ، هذه في الواقع أصوات ، لو درست على ضوء من القديم لاستطعنا ان نأتي برأي حاسم فيها ،لنعلم

ان الجيم كانت تنطق (جيما) باللهجة المصرية لا جيما ، وهذا هو اصلها الاصيل في اللغة العربية ، غير ان القرشيين ابان نزول القرآن غيروا هذا الصوت وحولوه من (جيم) بالمصرية الى (جيم) وادخلوا عليه نوعا من (الفلكشن) او نوعا من الاحتكاك ، بعد ان كان صوتا تسميه الان : صوتا انفجاريا ، او و (القاف) لها عدة صور في النطق في البلاد العربية ، والواقع لو تتبعنا التاريخ لوجدنا ان لها اصولا ، هناك (الحق) وهناك (الحج) وفي القاهرة الان تنطق بالهمزة • هذه امثلة خفيفة ، لا نستطيع او لا يصح ان نقف عليها ،لانها اهون من غيرها • ولو نزلنا الى ميدان الصرف ، لوجدنا ان هناك مشاكل كان من الممكن حلها بسهولة ، لو نظرنا الى اللغات السامية ، او لو نظرنا الى اللغة العربية في قديمها ، باب الاعلال والابدال ، والاعلال بالذات ، كما في قولهم (قول) ، قال الصرفيون : (قال) اصلها (قول) تحركت الواو وانفتح ما قبلها الى آخره ، هذا في الواقع عمل افتراضي ، ولكنا لو رجعنا الى تاريخ العربية ، لوجدنا ان هناك كان نطقا في فترة من الفترات ، والامثلة او الشواهد الصرفية كثيرة على هذا ، حينما قال صاحب الشاهد المعروف :

ألم يأتيك والانباء تنمي
بما لاقت لبوث بني زياد

قال النحاة : كان المفروض ان يقول : (ألم يأتك) ، ولكنه اشبع الكسرة ابدا ، المسألة اسهل من هذا بكثير، كانت هناك لهجة تصحح المعتل ، وتقول: (يأتيك) ، فلما دخلت اداة الجزم ، حذف الضمة ، فقال : (يأتيك) كما في (يضربك) ، حين قال : لم ، قال :(لم يضربك) ، فحذف الضمة من الصحيح،حذفها كذلك من المعتل ، وهذه اللهجة معترف بها ، رواها ابن الحاجب ، وروى هذا التفسير الذي قلت عن ابن جني العظيم قال : (انها لهجة) لو نظرنا الى الكثير من ابواب الصرف على هذا المنوال او على اساس من الاساس التاريخي ، لاستطعنا ان نحذف قدرا غير بسيط من الصرف التقليدي ، وليس فيحذفه اي ضرر وهذه التعليلات التي لا ضرورة لها في قولهم ، (قال) اصلها (قول) ، ولو قال هؤلاء النحاة : (ان (قال) اصلها (قول) تاريخا لقبلناه ، ولكنهم قالوا اصلها (قول) افتراضا وتأويلا • ومما يدل على انهم لم يقولوا هذا تاريخا ، ما قاله ابن جني : (وانما جاءت بعض الصيغ هكذا تنبيها على الاصل) وهذا كلام جميل ، (تنبيها على الاصل) ، ولكنه يقصد بالاصل الجزء ، او اصل الكلمة من حيث التركيب ، لا الاصل التاريخي ، ثم يقول : (ولا يظنن ظان انها كانت هكذا يوما من الايام تنطق ، فذلك ما لا يرتضيه اهل النظر) وهنا ابن جني مخطىء ، وذلك انها كانت تنطق ، ، وثابت في التراث اللغوي القديم انهذه الكمات المعلة كانت تصححفي فترة من الفترات ، فلو درسناها على انها ظاهرة تاريخية ، لكانت مقبولة ، ولكن ابن جني وغيره من العلماء درسوها على انها افتراضية •

هذه نقطة واحدة من النقاط التي تتعلق بالمنهج ، ونقطة ثانية منهجية : حينما جمعوا اللغة ، نزلوا الى البادية وهذا منهج سليم ، وما زلنا اليوم ، او ونحن نصر اليوم على ان نأخذ اللغة شفاها ، نستمع لاصحاب اللغة ، ثم نلاحظ ما يقولون ونسجل ، هذا جميل ، ولكن النحاة العرب والمصريين بوجه خاص ، كانوا يدخلون في القياس المنطقي كانوا يلجأون لقضايا المنطق ، وليس من المفروض مطلقا ، ان يكون هناك علاقة متبادلة تامة بين المنطق وبين اللغة ، فلكل لغة منطقها الخاص بها ، فلو كانت اللغات متمشية مع المنطق العام تماما، لاستوت اللغات في كثير من المسائل اللغوية ، وهذا غير موجود كما نعلم، لأن اللغات تختلف اختلافا كبيرا في قواعدها ، والدخول في المنطق اصاب قواعد اللغة العربية بشيء من الضرر ، ووقعت نتائجه علينا نحن فيما بعد ذلك انهم لجأوا الى قضية الاستتار وقضية التأويل والحذف ، فهناك باب التنازع ، وهناك باب الاشتغال ، وهناك في قوله تعالى : " وان احد من المشركين استجارك قالوا : ان (احد) فاعل لفعل محذوف ، والتقدير (وان استجارك احد استجارك) ولسنا في حاجة الى هذا ، وعلينا ان نتبع رأي الكوفيين فنقول : (احد) مبتدأ ، وتنتهي القضية ولاحاجة بنا الى هذا التأويل ولا حاجة بنا الى هذا التقدير •

فدخول المنطق والقياس المنطقي أفسد اللغة في كثير من النواحي ، أفسد اللغة كما قلت فيباب التنازع ، وفي باب الاشتغال ، وفي باب استتار الضمائر مثل (قم) فعل امر والفاعل مستتر وجوبا ، اذا كان مستترا وجوبا لمنذكره

يعني : مستتر وجوبا وعلينا ان نقدره ، تناقض ولا شك انما القضية لا يد فيها من محمول وموضوع او مسند ومسند اليه ، اذن ، اذا وجد احدهما علينا ان ندبر الاخر اذا فقد ، هذا خطير ، انتقل الامر الى اكثر من هذا بالتأويل في المثال

الواحد ، يقول القائل ، (تنورتها من اذرعات) ثلاثة اوجه في المثال الواحد ، ما هذا ؟اعلم ان المثال الواحد لا ينطق الا بصورة واحدة في الموقف الواحد ، فان نطق بصورتين فهو جملتان ، او هو شاهدان ، وحينئذ تنفك القضية ، تنفك المسألة ، وتصبح هذه مسألة وتلك مسألة اخرى ، اما ان المثال الواحد يعرف بأكثر من صورة ، وهذه قضية خطيرة جدا في التعليم العام ،حين آتي بمثال او شاهد واقبله على وجوهه الكثيرة ، ويجوز ويجوز ، ربما يجوز هذا للمتخصصين ولكن المتعلمين في المراحل العامة ، لا علينا ان حذفنا هذا او شيئا منه ، وحين يقول شاعرهم (كم عمة لك يا جرير وخالة ، كم عمة لك يا جريا وخالة ، كم عمة لك ياجرير وخالة) ثلاثة اوجه في بيت واحد • هذا من المستحيل ، وانما هي قضية التقويل، لان اللغة العربية بصورتها هكذا تستطيع ان تفسر هذه القراءات او هذه الصور من الاعراب ، ولكن الحقيقة ان الكلام لا يقال في فراغ ، الكلام يقال في اطار اجتماعي ، في سياق ، في موقف ، فقائل هذا البيت ، من الضروري انه نطقه بصورة واحدة ، اما الصور الاخرى فهي من صنع النحاة ولا شك •

ونقطة ثالثة منهجية ـ وليست هذه هي المشاكل الحقيقية ـ جمع اللغة ، قلنا : انه اعتمد على المشافهة ، هذا جميل وجيد ، وهو الاخذ من ابناء البيئة واصحاب البيئة ولكنهم كانوا يخلطون بين اللهجات ، والمفروض في كل بحث علمي ان تحدد بيئتك الجغرافية ، وان تحدد صيغتك اللغوية ، والبيئة الجغرافية ولتكن منطقة كذا ، ولكن في داخل هذه المنطقة اقوام مستعدون واقوام لهم صنائع مختلفة ، ومتى اختلفت الصنائع والحرف ، اختلفت اللغة ، فكان عليهم ان يستقروا على لغة معينة او على بيئة معينة ، وان يضعوا لها نحوا • نعم ، سيأتي اعتراض يقول : المفروض ان علماء العربية عليهم ان يحفظوا التراث كله ، هذا جميل لا ننكره وهو واجبهم • ولكن عليهم ان يحددوا متى انتهى هذا المستوى ومتى بدأ الكلام الاخر ؟ فالقضية قضية التحديد ، ما اللغة العامة ؟ ما اللهجات

بتحديد ولكن علماء العربية في كثير من اعمالهم خلطوا بين اللهجات ، فجاءت مشكلات لا حصر لها • انا شخصيا لاأتقنها حتى الان ، من ذلك ـ مثلا ـ اوزان الفعل الثلاثي ، اوزان الفعل الثلاثي في اللغة العربية لا نستطيع ان نسميها قياسية ، وانما اكثرها سماعية ، يعني لانستطيع ان نأتي بقاعدة محفوظة وان نقول بأن الفعل اذا كان الماضي على (فعل)يكون المضارع كذا بافتراض ، لا نستطيع حتى الان ، انما اكثر هذه الصيغ سماعية ، والواقع ان اختلاف هذه الصيغ يرجع الى اللهجات ، يقولون : ان الكلمة يصح ان تكون من باب (ضرب) ، (فعل ، يفعل) او من باب (نصر) (فعل ، يفعل) يصح •• متى جاءت هذه الصحة ؟ من اين هذه الصحة ؟ جاءت من اللهجات •

واذا انتقلنا الى جمع التكسير وجدنا صيغا كثيرة متفاوتة متعددة ، (شيخ) تجمع على : شيوخ واشياخ ، مشايخ ، مشيخة ، وشيوخاء ، حبيب : حب احب ـ احباب ، •• الخ كل هذه الصور جائزة في الكلمة الواحدة ، هذه في رأيي ـ وانا اعتقد اني على شيء من الحق ترجع الى اللهجات ، الكلمة الواحدة في الكلمات العادية : الجهد والجهد ، والعنوان والعنوان ، والعضو والعضو ، والدلالة والدلالة والدلالة مثلثة في الدال ، ما هذا ؟ ما هذا؟ كيف يستطيع المتعلم ان يتعلم كل هذا في فترة الدراسة العامة ؟ الكلمة الواحدة يجوز فيها اكثر من نطق في لغة واحدة ، في بيئة واحدة ، هذا ليس بجائز علميا ، وانما المسألة ان فيها خلط بين لهجة واخرى ، والنحو والصرف الذي جاء بهذه الطريقة التي نعرفها ، هو عمل ضخم رائع وتراث لا غنى عنه ، ولكنه يمكن ان نأخذ به كله في مرحلة التخصص ، ولكن ان نلقي بهذا كله في المراحل العامة ، او في التعليم العام ، فيه شيء من الظلم وفيه شيء من القسوة ، ولا بد ان نناشد المسئولين النظر الى هذا الموضوع ، وسنشير الى ذلك فيما بعد •

وصل الينا النحو الصرف بهذه القضية ، عزف الناس عنهما وتجنبوهما وكرهوا الدخول في تعليم الكبار والصغار يأنفون من دروس العربية ، وبعض الكبار يأنفون من دروس العربية ، والسر في هذا هو جفاف العربية او جفاف القواء العربية ، او جفاف طريقة تعليم العربية وما الى ذلك من مشكلات ، وسنشير اليها فيما بعد •

تلك صورة موجزة جدا ، هي أشبه بالامثلة فقط للمشكلات التي كانت موجودة في القديم ، وانتقلت آثارها العلمية الينا نحن وما زلنا نعاني منها ·

وفاتني ان اشير الى قضية مهمة جدا ، وهي ان النظر الى اللغة العربية لغة واقفة - بدلا من استعمال كلمة جامدة - واقفة غير متحركة ، بمعنى انهم نظروا اليها ووضعوا قواعدها في تاريخ محدد ، انتهى الاستشهاد بموت ابراهيم ابن هرمة سنة ١٥١ هجرية ، وبعد هذا التاريخ قال علماء اللغة العربية : ان كل ماجاء بعد ذلك هو مولد ولا يصح الاستشهاد به ، معنى هذا : ان كل ماقيل بعد هذا في نظرهم خاطىء او شبه خاطىء، نعم انهم درسوا ما جاء بعد ذلك ولكن درسوه على انه ضرب من اللحن وضرب من التحريف ، لا على انه من اللغة الاساسية معنى هذا : ان اللغة العربية لا تعرف الان تاريخهاولا نعرف شيئا عنها علميا ، من هذا التاريخ ، منذ سنة ١٥١ هجرية حتى الان ، ليست هناك دراسة تاريخية متطورة لاحداث اللغة العربية في فتراتها المتعاقبة ، فاذا اردنا نحن الان ، ان نقرر ماذا كان تاريخ هذه اللغة في العصر العباسي او الاموي ·· الخ · لم نستطع ، لانه ليست لدينا المادة الكافية للقيام بمثل هذا العمل ، كل ما قيل بعد هذا التاريخ الذي ذكرناه ، انما قالوه على انه لون من التحريف والخطأ ، او تصحيح او حركة التعريب او حركة التنقية ، ولكن لم يحاولوا الاعتراف ببعض الاساليب او بعض الالفاظ الجديدة ، ولم يحاولوا ان يضعوا لهذه الاساليب قوانين وقواعد جديدة ، تأخذ بيدنا ويبد العربية نحو النماء ، ونحو الغنى، حتىتصل الينا متطورة سهلة يسيرةقريبة المنال منا · لأننا في هذه الحالة نستطيع ان نأخذ كل ما جاء الينا متى كانت متطورة، ولنأخذ علماء الادب - مثلا - فقد قسموا الادب الى عصور ، هناك العصر الجاهلي ، وهناك عصر صدر الاسلام، ثم بني امية ، ثم الادب العباسي ،وهكذا ونظروا الى الادب على فترات الزمن، اما نحن لم ننظر للعربية على فترات الزمن، وانما نظرنا اليها في فترة واحدةوتركنا الباقية ، هنا يكمن سؤال كبير ،واعتراض كبير ومخيف ، وهو :ان اللغة مرتبطة بالقرآن الكريم ، هذا صحيح ، ونحن مع القائلين بهذا قلبا وقالبا ، ولا يجوز لنا بحال من الاحوال ان نسيء الى هذه اللغة ، لانها مرتبطة بهذا الدستور العظيم · ولكن القضية ليست هكذا، الذي اود قوله هو :
كان المفروض - وهذا لم يحدث - ان تستمر دراسة اللغة العربية على فتراتها المختلفة زمنيا ، ثم بعد هذا اختيار الصيغة العامة التي يمكن ان تكون اللغة الرسمية ، ولتكن هذه هي القواعد المعنية ، ولكن لا نحرم من الدراسة ، كان المفروض ان تدرس اللغة العربية على فتراتها الاخرى ، بالرغم من انها ليست اللغة الرسمية في رأيهم ، وانما لنتعرف على ما اصاب هذه اللغة ، وما لحقها من تغير او تطور ، ولكن هذا لم يحدث ، وبقينا هكذا بدون ان نعرف عن لغتنا شيئا مناسبا ، لما اصابها في هذا التاريخ الطويل من تطور وتغير ·

ننتقل بعد هذا الى مشكلة اخرى كبيرة ، وهي مشكلة الكتابة ، وهذه مشكلة قديمة حديثة ، اما انها مشكلة قديمة فواضح ، الكتابة العربية في الاصل مستمدة من الكتابة السامية او من كتابات اخرى ، وكانت الحروف الابجدية العربية في الاصل غير منقوطة ، ولم يكن هناك شكل فحاولوا تشكيلها ، بدا ذلك (ابو الاسود) بوضع نقط الشكل حين سمع رجلا يلحن في قراءة القرآن ، فوضع نقط الشكل ، ووضعه على اساس علمي خطر عظيم حيث قال : (اذا رأيتني فتحت شفتي بالحرف ، او فمي بالحرف ، فضع نقطة فوقه ، فهي فتحة ، واذا كسرت شفتي بالحرف فضع نقطة تحته ، فهي كسرة واذا ضممت شفتي بالحرف فضع نقطة فوقه عن شماله ، فهي ضمة) · في غاية الروعة وفي غاية العظمة من الناحية العلمية ، ذلك لانه سمى الفتحة نسبة الى فتح الفم، والكسرة نسبة الى كسر الفم، والضمة نسبة الى ضم الفم ، وما زلنا الان ندرس هذا الكلام ونربط ما يقال في الغرب الحديث ، نربط هذا بما قاله (ابو الاسود) في هذا الزمن السحيق ، عمل رائع ، بعد هذا كانت الكتابة غير منقوطة ، فكان لا بد من نقط ، فوضعوا نقط الاعجام ، ووضعه (نصر بن عاصم) فاختلط النقطان ، نقط الكتابة ونقط الشكل ، او نقطة الاعجام ونقط الشكل ، فجاء الخليل ابن احمد العظيم ، ووضع الشكل المعروف ، وهو الفتحة جزء الالف والكسرة جزء الياء ، والضمة جزء الواو هذه الفتحة الموجودة الان في الشكل ان هي الا نصف الالف ، ولكنها مضطجعة فوق الحرف ، والكسرة نصف الياء ومضطجعة تحت الحرف ، والضمة واضح جدا العلاقة

بينها وبين الواو ، وهذا ادراك صوتي عظيم ، فقد ادركوا ان هناك علاقة صوتية وبالتالي ينبغي ان تكون هناك علاقة رمزية : آ ، اي ، او ـ فكان من نبوغ الخليل ان علم بهذه او ادرك هذه العلاقة فاستقر رأيه على ان تكون هناك علاقة ايضا بين الرموز ، بأن تكون الفتحة نصف الالف ، وان تكون الكسرة نصف الياء ، وقال هذا فيما بعد : (واعلم .. ان الحركات ثلاثة كما ان الحروف ثلاثة والفتحة نصف الالف ، والكسرة نصف الياء ، والضمة نصف الواو ،

وقد كان متقدمو النحاة يقولون بذلك ، كقول ابن جني : (الفتحة الالف الصغيرة ، والكسرة الياء الصغيرة والضمة الواو الصغيرة) وكانوا في ذلك على طريق مستقيم .

ونقطة اخرى جميلة ، وهي ان الابجدية العربية اصلح الابجديات على وجه الارض لنفسها ، اي للغة العربية ، اذ بنيت على اساس علمي رائع ، مازلنا نأخذ به حتى الان ، يعني رمز واحد للوحدة الصوتية الواحدة الباء في مكان تكتب برمز الباء ، والخلاف في الطباعة فقط ، والتاء كذلك ، بخلاف اللغات الاجنبية .
ولتكن الانكليزية مثلا كلمة (   ) تكتب بطريقة غير طريقة النطق ولكن اللغة العربية مازالت محافظة على هذا الاساس وهو ان ما يكتب ينطق ، باستثناء عدد بسيط جدا من الكلمات ، حيث تجد كلمات مثل (عمرو) الواو لا تنطق ولكنها تكتب ، وحيث نجد كلمات مثل (اولئك) تنطق الالف ولكنها لاتكتب في لام اولئك .. وهكذا ، ولكنها امثلة محدودة معدودة يمكن حصرها وحفظها ، اذن هذه اسس طيبة جيدة جميلة ما اروعها وما اعظمها ، ولا شك في هذا ، ونستطيع ان نقرر من فوق هذا المنبر الان ، بأن الدعوة الى اللاتينية دعوة جاهلة مضللة اي الكتابة باللاتينية ، ذلك لان الحروف العربية او الرموز العربية ما زالت حتى هذه اللحظة صالحة لتسجيل اللغة العربية وكتابتها ، بالرغم من تعدد لهجاتها ، فمهما تعددت اللهجات تجد اننا نستطيع ان نكتب هذه اللهجات و ان نكتب غيرها والفصحي بهذه الرموز، بخلاف الابجدية اللاتينية ، فالاصل كلمة "   " في اللغة ، اصلها (تخت) فكانت الكتابة مثل النطق ، ثم حصل تطور في اللغة ، فافترقت الكتابة عن النطق ، والانجليزي الان يعاني من هذا

وحدث في الخمسينات او الاربعينات ، ايام كنت في انجلترا ، ان نوقش هذا الموضوع وهو شيء من التعديل في الابجدية ، وكان (برناردشو) من الداعين لهذا الاصلاح ، ولكن الكثيرين وقفوا ضده ، وقالوا : ان الاصلاح هذا ينتظم مجموعة من المشكلات ، مشكلة ثقافية ومشكلات اجتماعية ومشكلات اقتصادية ، وهكذا ، ومع هذا وقفوا ، وبالرغم من ان هذه الابجدية فيها شيء من العيوب ، بخلاف الابجدية التي مازالت على هذا الاساس صالحة للكتابة باللغة العربية ولهجاتها ، غير ان هناك عيبا خطيرا ، هذا العيب هو عدم وجود رموز مستقلة للحركات الصغيرة ، تدخل في صلب الكلمة ، الحركات القصيرة في اللغة العربية لا تدخل في صلب الكلمة وهنا تأتي الخطورة ، وهو ان غير المثقف بل ان بعض المثقفين يخطئون في قراءة اللغة العربية ، اما لانهم غير مدركين لقيم هذه الرموز ، واما لان هذه الرموز غير موجودة ، ومن ثم يأتي الخطأ ، وما اكثر هذا الخطأ في القراءة فما بالك في النطق ، النطق مسألة معروفة ما الحل ؟ .. حل هذه المشكلة او مشكلة الرموز الصغيرة ، ليس لها من حل ظاهر الان ، وحاول مجمع اللغة العربية في القاهرة ،وأظن بعض المجامع العربية الاخرى في اماكن كثيرة ، حاولت مثل هذا العمل، ولم يصلوا الى حل ، بحيث نصل الى ايجاد رموز للحركات القصيرة داخلة في صلب الكلمة ، بحيث يستطيع القارئ ان يعرف ان هذه فتحة او كسرة او او .. الخ .
هذه قضية من القضايا التي توقعنا في مشكلات خاصة في مشكلة الاعراب ، نحن لو اخطأنا في صلب الكلمة ، قد يجوز هذا على المستوى الصرفي ، ولكن يبقى الخطأ على مستوى الاعراب او مستوى النحو ، ماذا نصنع ؟ هذه مشاكل انا اعرضها ولا استطيع حل كثير منها ، وانما استطيع ان اوصي او اشير كما سنرى فيما بعدببعض الحلول ، ماذا نصنع ؟

لو اخطأ الناس في بعض الصيغ ، قد يكون جائزا ، ولو اني انا شخصيا احرمه ولكن هذا هو ما يحدث .
الاعراب ماذا نصنع ؟ يقال ، او قيل : ان الاعراب سمة صوتية وليس سمة نحوية ، وهذا رأي خاطئ واقرر من الان ، ان الاعراب في اللغة العربية ليس سمة صوتية يعني ليست مسألة تناسب صوتي ، جاء به العرب تكملة صوتية للكلام ، او لتنسيق الصوت ، هذا خطأ ، الاعراب جزء لايتجزأ من بنية الكلمة ، وبنية التركيب ، وهو

السمة الاساسية او سمة من السمات الاساسية للغة العربية ، شأنه في ذلك شأن الرتبة او شأن الموقعية ، الاعراب لا يقل اهمية عن هذه الاشياء ، فلوحاولنا التخلص من الاعراب ، حينئذ سنتخلص من اهم مقومات اللغة العربية ، وبالتالي لا تصبح لغة عربية بالمعنى العلمي ، لكن هذه المسألة تحتاج الى تفكير ، هناك ابواب من النحو يمكن مراجعتها ، او ابواب لا يمكن مراجعتها ، او يمكن التخفف من بعض مشاكلها او بعض مسائلها او بعض قوانينها

فهناك كما اشرت من قبل : التنازع والاشتغال ، وهناك الندبة ، وهناك الترخيم ، كل هذه ابواب يمكن ان نستغني عنها • وهناك الاعراب التقديري ، واظن ان لجنة عربية سنة الف وتسعمائة وثمان واربعين ، قامت بنوع من التصحيح ، او نوع من التخفيف من هذه القواعد ، وكان ذلك المثال هو الاعراب المحلي (في محل كذا) اذن هناك امكانية للتغيير، اجتمعت هذه اللجنة وخففت بعض القواعد وحذفت باب الاعراب التقديري او المحلي كله من النحو العربي ، وكانت اللجنة برياسة دكتور طه حسين سنة ١٩٤٨ فيما اذكر ، وكنا طلابا آنذاك ، يمكن الان ايضا ان يجتمع الناس وان يقرروا في بعض القواعد ، وليكن الاعراب التقديري ، او بعض ابواب النحو المتعبة حتى المتعبة للمتخصصين ، فما بالك بغير المتخصصين •

الهمزة والالف اللينة ، اذن هذه مشكلة الحركات القصار ، ليس في المستقبل القريب حل ، او انا شخصيا لا استطيع ان ارى لها حلا ، ولكن القضية ، اما التضحية بشيء من الاعراب ، او التضحية ببنية الكلمة ، وكلاهما لا يجوز بحال من الاحوال ، اذن ، لا بد من حل آخر ، وهو التخفف من قواعد النحو او بعضها على الاقل ، بواسطة الدارسين المتخصصين ، وهناك مسائل كثيرة يمكن التخفف منها على الاقل في المستوى العام ، الهمزة والالف اللينة ، نحن نعلم ان الهمزة من اصعب المشكلات في الكتابة العربية ، كانت هناك لهجات ، لهجة تحقق ، اي تنطق الهمزة في كل موقع ، ولهجة تخفف او تسهل الا في الموقع الاول ، يعني لا تنطق الهمزة ، وجاءت فترة كانت تكتب في الاصل الهمزة هي الالف ، لان الالف وحدها هي الهمزة في الاصل • الالف التي هي الان الف المد في (قال) هذه الالف اذا اطلقت في اللغة العربية في القديم كانت تعني الهمزة ، ثم استغلوا هذه الالف في شيئين / في الهمزة وفي الف المد فيما بعد ، فأصبح للألف مفهومان

ولا بد ان يؤدي هذا الى خلط ، فجاء الخليل ووضع هذه العلامة ، وهي رأس العين الصغيرة للاشارة الى الهمزة ، الصوت الصامت المعروف ، همزة القطع كما نسميها وكان المفروض ان تكتب على الالف فقط ، لان الالف هي رمزها الاصلي ، وانتقال الالف الى الالف اللينة او الفتحة الطويلة استغلال ، استغلال لهذه الهمزة ، انما العلامة الاصلية هي الالف ، ابن جني نفسه قال هذا الكلام ، واعطانا المسوغ ، لان نتحلل شيئا او نحاول شيئا من الاصلاح ، قال : (واما اخراج ابي العباس الهمزة من اول الحروف ، واحتجاجه بانها لاتثبت على شيء فليس بشيء ، اذ الهمزة ثابتة في النطق قبل الكتابة ، وانما كتبت الهمزة مرة على الف ومرة على ياء ومرة على واو ، مراعاة لاهل التخفيف) ما معنى هذا ؟ ان كلمة ذئب تكتب ، ذال ، همزة على ياء ، باء ، فاذا كنت من المحققين قلت : (ذئب) وان كنت من المسهلين قلت : (ذيب) لان الياء موجودة ، وهما لهجتان مقبولتان ،ويقول (واذا كنت من محققي الهمزة ، وجب كتبها الف البتة) يعني اذا كنا من محققي الهمزة في النطق ، يجب ان تكتب هذه الهمزة بالالف في كل مكان • هذا كلامه على الاقل ، وانا معه ولا شك في هذه القضية بالذات ، قضية الهمزة ، وهنا يستعمل البتة استعمال خاص ، ومعنى هذا انه يمكن النظر في الهمزة في اللغة الفصحى حاليا ، على اساس انا جميعا ممن يحققون الهمزة ، او فعلا نحن نحققها ، ولكن يبقى اعتراض ، واعتراض خطير ، وهو ان اللهجات الجارية ، الان كلها تخفف الهمزة ، فأنت اذا كتبت بالالف خدمت الفصحى ، ولكنك اذا استقررت على هذه الالف ، لا تستطيع ان تصور العاميات بحال من الاحوال •

فالموقف يحتاج الى دراسة ، اما ان نأخذ بهذا او ذاك ، ولكن هناك قابلية وامكانية التصحيح ، وانا شخصيا أميل الى كتابتها بالالف دائمة في كل مكان، ذلك لان الهمزة لو اخذناها من الناحية الصوتية دون الناحية التاريخية ، الهمزة حين نصنفها ، صوت صامت مثل الباء ،الباء سواء كانت مضمومة ، قبلها ضمة ،مكسورة قبلها كسرة ، تكتب باء ، والهمزة حين تنطق مضمومة ، قبلها ضمة ، قبلها كسرة تنطق همزة ، صوت صامت ، اذن ينبغي ان تثبت على حال واحدة ، كما قال ابن جني، (وجب كتبها الفا البتة) ثم الالف اللينة في آخر الكلمات : (سعى وغزا) قالوا : (الكلمة الثلاثية اذا كان اصل الالف واويا كتبت بالالف • واذا كان

الاصل يائيا ، كتبت بالياء) وغزا الالف هذا يفيدنا في معرفة الاصل ، وهذا لا شك فيه ، يعني انني اعود الى اصل الكلمة ، ولكن القضية حين ننظر لها نظرة تاريخية ، نجد - وما زلت أتمسك بهذا الرأي - ان هذه الكلمات كانت مرة تقال هكذا (غزو وسعي) وهذا لا شك فيها ، واصابها تطور فصارت (سعى وغزا والقضية هنا ، اما ان نأخذ التطور في الاعتبار ، واما ان نلغيه ، انا ارى ان نأخذه في الاعتبار وان تكتب هذه الكلمات جميعا بالالف بلا فرق، لانها تنطق الفا ، والعبرة بالنطق . والرجوع الى الاصل لسنا في حاجة اليه في الاملاء ، ربما يحتج الصرفيون بأننا في حاجة الى معرفة اصول هذه الكلمات . انا احتاج اصول هذه الكلمات في غير هذه الصيغ ذاتها ، اما هذه الصيغ ذاتها ، فلا حاجة لي لمعرفتها ، والكتابة يجب ان تكون متطورة ، وأن تكون مطابقة للنطق ،والحق ان هذا الاصلاح - ان تم - يكون متمشيا تماما مع رأيهم في وضع الابجدية العربية حين وضعوا رمزا لكل وحدة صوتية ، وفقا للنطق الذي نطقوه ، فاذا كانوا هم اجازوه لانفسهم في البداية ، فمالنا لا نجيزه الان اذا استطعنا ، هذا يجوز في رأيي على الاقل .

هذه بعض المشكلات الخفيفة المتعلقة بالكتابة ، وما زلت اكرر ان موضوع الشكل او الحركات القصيرة او رموز الحركات القصيرة ، هو المعضل وهو الشكل ،والخطأ فيه يتطرق الى الخطأ في البنية والى الخطأ في الاعراب ، ولا نستطيع ان نتسمح في اي من هذين الخطأين بحال من الاحوال، لان التسمح في اي منهما لا بد وان يسيء الى اللغة العربية ، ولكن القضية في حاجة الى بحث والى دراسة ، تلك مشكلات قديمة ، وقديمة حديثة ، وقلت وخصصت الكتابة بالقول بأنها قديمة حديثة ، لان اللغة المنطوقة لا نعرف عنها كثيرا من ايام الاستشهاد حتى الان ، لم تدرس تاريخيا ، لم نعرف ما اصابها ، هل هو تقدم او تأخر ؟ ماذا اصابها ، لا ندري تماما ، لان العرب او علماء العربية في القديم لم يدرسوا هذا دراسة علمية ، وكل الذي فعلوه هو تصويب الخطأ واكثره منصب على المفردات ، وقليل جدا ما انصب على الاساليب والعبارات ، قليل جدا ، ولكن لا يعطينا فكرة كاملة عما اصاب هذه اللغة من تقدم او تأخر عبر الزمن الطويل العريض ، والان في المشكلات الفورية ، في العصر الحديث ، المشكلات الحديثة التي تقابل اللغة العربية ، وهذه جديرة بالنظر ، مشكلات العربية في الحديث كثيرة جدا ، وهي مكشلات في الواقع مرتبطة بمشكلات اصحابها ، اولا : يقولون ان اللغة العربية في العصر الحديث ليست لغة علم اوغير متطورة الدرجة تفي بحاجة العلم ، وهذا صحيح الى حد ما ، ولكن ما السر ؟ شيئان ، الشيءالاول حينما دخلت العلوم الحديثة الى بلادنا ، وانا اتكلم الان عن مصر ، لاني اعرفها تماما ، حين دخلت العلوم الحديثة الى بلادنا ، كانت تدرس بلغات اجنبية ، وظل الناس يدرسونها حتى الان باللغة الاجنبية في الطب والهندسة في الجامعات المصرية ، او في اغلب المحاضرات ، اذن الطبيب او المهندس يفكر بلغة اجنبية ، فيكتب بلغة اجنبية ، معنى هذا ان اللغة انعزلت عن العلم ، ولو حاول الطبيب او المهندس ان يفكر تفكيرا عربيا وهو يدرس ، لاستطاع ان يكتب بالعربية ، وهنا يأخذ العربية بيدها ويدخلها الى مجال العلم ، وحقل العلم ، ويستطيع ان ينميها وان يأخذ منها مشتقات كثيرة ، وان يصنع اساليب كثيرة ، فتغنى وتثرى وتصبح لغة غنية ، لغة علمية ، اذن ، الذي اصابها من تخلف نحو العلم بسبب الاسلوب الذي تقوم به الان في تعليم الطب والهندسة وما الى ذلك .

ثانيا : كان هناك عزوف من القوم لا يقدرون العربية قدرها ، ولايعطونها الاهتمام الكافي ، ربما كانت نظرة اجتماعية واسمحوا لي ان نكون صرحاء ، ان تعليم اللغة العربية في بلادنا العربية مرتبط بطبقات فقيرة ، وطبقات عادية او اقل من العادية اجتماعيا ، وظن الناس ، ان هؤلاء المعلمين فيهم شيء من الجمود ، وشيء من عدم التطور ، وعزف الناس عن العربية واصحاب العربية حتى الان ، فيما اعتقد ، واظن اننا جميعا نعلم ان علية القوم وكبار القوم ، كانوا في مصر يرسلون ابناءهم الى المدارس الاجنبية ، ولا يودون ان يتعلم هؤلاء الصغار اللغة العربية بحال من الاحوال ، انما العيب عيب اصحاب العربية ، هم الذين عزلوها حين يقولون : ليست لغة حضارة ، وليست لغة علم ، هذا خطأ ، تستطيع ان تقول : ان اصحابها هم الذين ليسوا اصحاب علم ، لان اللغة كلغة لا توصف بأنها لغة حضارة بذاتها او لغة علم بذاتها وانما قوتها من قوة اهلها ، وضعفها بضعف اصحابها ، وتأخرها بتأخر اصحابها ، وهكذا ، فلو اخذ الناس بيد هذه اللغة وادخلوها الى مجال العلم وعالجوها وتناولوها ومارسوها بلغة العلم ،

لاستطعنا ان نصل الى لغة علمية قادرة على التعبير بمرور الزمن •
وما هو الحل الان ؟ هل نبدأ الان بتعليم الطب والهندسة في مصر بالعربية ؟ لا •• لانه ليس هناك الاستعداد الكافي من الاطباء والمهندسين ، ومن الخطر جدا ان نفرض عليهم هذا الفرض مرة واحدة ، لا بد ان يكون هناك استعداد ، واستعداد طويل ، لا بد ان يكون هناك تهيؤ ،واكثر علماء الطب واكثر المهندسين مشغولون، وليس لديهم الوقت الكافي ليفكروا في هذا العمل العجيب ، وفي الوقت نفسه عمل عظيم ورائع ، وهو ان يفكر الطبيب وان يفكر المهندس حين يلقي محاضرته باللغة العربية او بالتفكير العربي ، ومن القوة يستطيع ان يصوغ محاضرته وعلمه بلغة عربية سديدة ، فيأخذ بيدها نحو القوة والنمو والازدهار ، وتصبح هذه اللغة بالتدريج لغة طبية ولغة طب ومما يدل على ان العربية لاينبغي بحال

أن توسم بهذه السمة ، بأنها ليست لغة

علم ، ان العربية في عصورنا الخالدة ، العصور العظيمة ، كانت لغة الطب ولغة العلم ، وعبرت عن طبنا وعلمنا ،وأخذه الغرب منا عن طريق اللغة العربية لا عن طريق لغة اخرى ، اذا ، هي ذاتها صالحة ولكن أهلها هم الذين صنعوا فيها ما صنعوا هذه مشكلة ويجب ان تدرس ، وان تدرس على مستوى سياسي فيما أعتقد ، بتعاون مع المستوى العلمي كذلك ، وانما لا بد من مستوى سياسي ، لان العلماء احيانا لا يملكون شيئا ، او قد لا يملكون اي شيء فيما اعتقد ، عليهم ان يشيروا ، ولكن ماذا يؤخذ به ولا يؤخذ ، هذه قضية كبيرة لا ندري هذه واحدة ، وكانت النتيجة ان اللغة العربية انعزلت عن مجال العلم ، واصبحت في كثير من الاحوال غير قادرة على الكتابة بها في العلوم او الالقاء بها في العلوم • فوقفت هذه الوقفة ، فظنوا انها لا تصلح لان تكون لغة علم بحال من الاحوال ، بقيت المصطلحات على فرض اننا بدأنا نتعلم الطب والهندسة بالعربية ، بقيت المصطلحات •

المصطلحات مشكلة في جميع انحاء العالم ، المصطلح في الاساس ملك اصحابه لانهم هم الذين يفهمون مضمونه ومعناه ، ومن هنا انا شخصيا بالنسبة للمصطلحات آخذ بثلاث طرق متتابعة •

الطريق الاول : النقل بحرفه ، بمعنى ان اخذ المصطلح بلغته الاجنبية في البداية حتى نتعمق في فهمه وفي معناه ، فاذا استقر هذا المعنى وهذا المفهوم وهذا المضمون في أذهاننا ، لا علينا بعد ذلك الا بواحد من اثنين :
اما التعريب او الترجمة ، والتعريب : هو نقل الكلمة من صورة اجنبية الى صورة عربية ، ولكن بالمحافظة على الاصوات الاجنبية الى حد ما ، ولكن الترجمة معناها نقل المعاني • فلا مانع اطلاقا بحال من الاحوال في الخطوات الاولى ان نأخذ المصطلحات كما هي في لغاتها الاجنبية ، وان نطعم بها كلامنا ولكن بقدر ، اي وقت الحاجة وبحسب الحاجة وبحسب الظرف ، ثم اذا استقر المفهوم والمضمون للمصطلح المعين ، استطعنا بعد ذلك ان نعربه وان نترجمه •

مشكلة اخرى ملحة ، النمو الاقتصادي والسياسي للبلاد العربية ، نحن الان نشغل العالم اقتصاديا وسياسيا • ولكن للاسف لا نشغلهم علميا بحال من الاحوال ، تأتي الوفود الينا باتفاقات اقتصادية اونحو ذلك ، ولكنها لا تأتي الينا لاخذ حضارة او لاخذ علم جديد او تكنولوجيا او ما الى ذلك ، هذه قضية ويجب ان تشغلنا جميعا ، ان تشغل العرب جميعا من اقصى البلاد العربية الى اقصاها • الناس تأتي الينا بالاقتصاد ، ولكن نحن نود ان يأتي اليوم لتكون لنا معرفة جيدة بالعلوم والتكنولوجيا ، حتى نأخذ ويأخذوا ، حتى يكون هناك تبادل في المعارف ، ولكن الذي نراه الان اننا نقف بالمال فقط ، وفي حاجة الى بحث عن طريق جديد لاعادة الحضارة العربية ، واعادة العلوم العربية الى مقرها الاول والى مكانتها الاولى كما كانت ، يأتي هؤلاء الناس الينا •والعجيب بالنسبة لنا ان الكثير منهم حين يفدون الينا ، يبدأون هم في تعليمنا لغتهم ، والمفروض ان نبدأ نحن بتعليمهم لغتنا ، ولكنهم معذورون ، لانهم يصدمون حينما يبدأون في تعلم العربية ، فلا يجدون مرشدا • ولا يجدون مادة سهلة مستساغة ، ولايجدون منهجا مناسبا • ومن ثم يأخذون العربية من اي طريق ، يأخذونها من الشارع ، يأخذونها من انصاف المثقفين ،يأخذونها بلا دراسة ، يأخذونها من اي وطن عربي ، يأخذونها من اللهجات ، ولكن هل هناك دراسة ؟ اين الجامعة العربية ؟ اين المجامع اللغوية ؟ ان هؤلاء القوم في حاجة الينا ونحن في حاجة اليهم ، ومن الضروري ان نسهل عملية التبادل،التبادل الفكري والتبادل الفكري لا يكون الا بالوسيلة الاولى وهي اللغة ، اين اللغة العربية ؟ اين المنهج الموضوع لهؤلاء

الناس ؟ اين الدراسة العلمية الموضوعية لهؤلاء الناس كي يتعلموها بطريقة علمية حديثة سهلة مبسطة ، لا يستطيعون ان يجارونا فيها ايضا ؟ كل منا يقوم بطريقة فردية ، وباشارات ارتجالية لا قيمة لها ، حتى في الوطن العربي الواحد تجد مجموعة من الهيئات تحاول ان تقوم بهذا وذاك ، ولا ينفع واحد منهم بشيء وفي شيء ، يعني تجد في القاهرة اكثر من مركز لتعليم العربية ، وليس هناك مركز واحدصالح لهذا العمل ، السر في هذا اهو الارتجال ، السر في هذا هو موضة ان نعلم غير العرب العربية ، كيف ؟ .. ان هذا يحتاج الى هيئة كبيرة محترمة ، وأقصد محترمة علميا ، وان يكون لها امكانيات مادية كبيرة ، وان يكون لها لون سياسي ، وان يكون لها لون ثقافي وان يكون لها لون لغوي ، وان تكون مدروسة دراسة عميقة قادرة كبيرة ، هذا يجرنا الى ان الجامعة العربية عليها ان تقوم بشيء ، وبخاصة كلنا نعلم ان الجامعة العربية فتحت ابوابها الان للاخوة الاشقاء في افريقيا في الصومال وموريتانيا ، انهم يعرفون العربية .. نعم يعرفون شيئا من العربية ، وعن العربيين ، ان علينا واجبات بالنسبة لهؤلاء القوم ، هل اعددنا الخطة لتعليم العربية ، ولا اقصد ارسال المعلمين ، ارسال المعلمين هذا شيء بسيط ، لكن هل اعددنا منهجا ؟ هل أعددنا دراسة ؟ هل قابلنا حاجات هؤلاء القوم ؟ والبقية تأتي ، ان الجامعة العربية ابوابها مفتوحة ، ويمكن ان تتقبل اشقاء اخرين واخوة اخرين من البلاد ، ماذا فعلنا في هذا كله ؟ لا شيء ، هذا ايضا يحتاج الى نظرة كبيرة ، واقول نظرة سياسية علمية لغوية متكاملة ، والذي اود ان اقوله : ينبغي ان يتم هذا على مستوى البلاد العربية جميعا في مكان واحد ، وليكن هنا ، او ان يكون هنا وله فروع ، لا ان تقوم كل دولة بهذا النظام ، نحن سمعنا او نسمع الان ان هناك مركزاً لتعليم غير العرب العربية في السودان ، ونعلم ان هناك نية لفتح مثل هذا المركز في السعودية ، وليكن ، ولكن الافضل في رأيي ان ينضم هؤلاء الى هؤلاء ، وان تكون هناك هيئة مشرفة لتعليم العربية لغير العرب في البلاد العربية على مستوى علمي واحد ، اين المقر ؟ في اي مكان وهذا المقر هو الرأس ، ثم له فروع في باقي البلاد العربية ، ليكون العمل متناسقا ، عملا علميا لا ارتجاليا ..كفى ارتجال .. المجامع اللغوية عاجزة كل العجز عما ينبغي ان يفعلوه ، ان هؤلاء القوم ينبغي ان ينظروا نظرة معينة ، وان يتابعوا اللغة العربية بعين الجد والتفتح ، ينبغي ان يعلموا ان اللغة متطورة والحياة متطورة ، وينبغي ان نقابل بين هذين، اوان نضيق الشقة بين اللغة وبين التطور الاجتماعي ، كيف ؟ يمكن لهذا المجمع الذي يجلس ساعات وساعات في تفسير كلمة ، او في تفسير مصطلح ، يمكن ان يدرس اللغة العربية الفصحى المعاصرة الان دراسة علمية ليبين لنا اين نحن ،او اين هذه اللغة من القديم وقواعدها ؟ .. أيجوز ان ندخل كلمات جديدة ؟ ربما ، أيجوز ان ندخل اساليب جديدة ؟ ربما .. ولم لا .. واذا كانت هذه الاساليب الجديدة لا تتعارض مع روح العربية أو مع بعض قواعدها القديمة لم لا .. ولكن الذي يحدث اننا بسرعة وبشيء من الحماس نقول : ان هذا الاسلوب خطأ ، ان هذه الكلمة خطأ ، دون ان ندرسها وان نتبين وجه الحق فيها ،علينا ان نتبع العربية وان نتبع الحياة معا ، اللغة مواكبة للحياة ، فلا بد من النظر في اللغة ، ومن النظر في حاجة الدنيا ، لنقابل بين الحاجتين ، ومن ثم نستطيع ان نصل فيوقت من الاوقات الى لغة سهلة ميسرة تحفظ على العربية خصائصها ، انا لا انادي حتى لا يفهمني احد خطأ ،لا انادي بالتضحية ببعض سمات العربية وخصائصها الاولى ، وانما الذي اقوله : افتح الشباك يجب ان نفتح النوافذ لنأخذ هواءجديدا مناسبا ، هذا الهواء في رأيي هو هواء صحي وليس هواء سيئا ، وعلى هذا المنوال نسير ، بمعنى ان ندرس معا ، ان ندرس الاساليب الحديثة والمصطلحات الحديثة ، لتتبين وجه الحق في هذا او ذاك .

اما عن رابطة للغة العربية ، فالرابطة في بلادنا تحتاج الى شيء من المال ، والى شيء من التعاطف ، وشيء من الاشراف ، وليس كل واحد منا قابلا ان يكون مشرفا ، لانه مشغول في حياته وفي مشكلاته ، ولكن يمكننا ان نقدم المشروعات والدراسات وندفع بها الى اصحاب التنفيذ لينفذوا منها ما يشاؤون ، او يتركوا منها ما يشاؤون ، فلا بد من هذا العمل الجماعي .

تبقى وزارات التربية والتعليم في البلاد العربية ، لا بد ان يكون بينها نوع من التنسيق متى اتفقت الاذهان في التفكير اتفاق من نوع ما ، لان هناك فروقا فردية ، ولا شك ، انما هناك اطار عام ، اذا فكرنا في الحياة

تفكيرا متسقا عربيا في اصله ظاهره وباطنه ، على اساس من الثقافة العامة المشتركة ، اذا ترانا نصل الى الطريق الموحد . وانا في رأيي انه لا بد ان يكون هناك شيء من التنسيق الرسمي او الاجباري ، قل ان شئت ، بين هذه الوزارات ، ولننظر في مناهجها منذ الان وان توحد هذه المناهج بقدر الامكان .

تأتي بعد هذا قضية القائمين على دريس اللغة ، وجمود هؤلاء القائمين على هذا التدريس ، وفي عصرنا الحاضر ضعف واضح في القائمين على تدريس اللغة العربية ، وهذه قضية كبرى ، هي قضية العصر في البلاد العربية ، ضعف معلم اللغة العربية ضعفا ظاهرا او فيه شيء من الجمود ، لا يتحرك كثيرا كما ينبغي ان يكون ، ومن ثم هذه القضية ، انا اقترح ان نعقد لها ندوة خاصة ان شئتم، لان الكلام فيها يطول ، لان قضية المعلم ايها السادة ، ليست قضية ثقافية فقط ، قضية المعلم في البلاد العربية ، قضية اقتصادية ، اجتماعية ، ثقافية .
المعلم مطحون ، .. نعم بعض الناس يقول انه الان يأخذ الدروس الخصوصية ، ولكن هذه قضية منفصلة تماما ،
المعلم الان يجب ان ننظر اليه نظرة جديدة .. وكلنا يعلم هذا ، ليس السر في الكليات التي تخرج معلم اللغة العربية ، وانما في المجتمع ، وانما الحياة ، والضعف في التعليم من البداية للنهاية ، قضية واسعة خطيرة كبيرة جدا .. ولقد أطلت فيما اظن ، ولكن اسمع من يطالبني بحلول ، فالقضية - كما قلت انا شخصيا لا اقدم حلا حاسما ، وانما اشير اشارة خفيفة الى الطرق التي اشرت اليها . ان المجتمع يستطيع ان يفعل كذا وزارة التربية والتعليم ، تستطيع ان تعمل كذا ، الجامعة العربية ، تستطيع ان تفعل كذا ، كل هذه اشارات الى الحلول او الى طرق الحلول ، اما انا لي اراء معينة ، لا استطيع ان انقلها اليكم الان ، لانها تحتاج الى دراسة متأنية واعية ، ربما عدلت منها اوغيرت منها ، وشكرا لكم ..
والسلام عليكم ورحمة الله .

القمر

من تلالنا القمر　　يا هلا بها ذكر
جايلته اخت نجلا　　. ،والدمى الاخر

طال ما فجأنه　　حافياً على الزهر
مزق القميص! ما انهم" ، والحلى غمر
مغزل لجذة كان ، فاكتسى القمر..

وانفرطن حوله　　باقة من الشرر
ضحكة سمت ..　　واغنية على الاثر..

والمساء حمل مواله　　القرير قر
ذاهل تزلجت　　رجله على الدرر
والربى تكسرت　　ملء حرجه صور
من تلالنا القمر

سعيد عقل

محمد الخموسي الخناشي



كانوا وقتها يقيمون بمنزل الاسرة بأحد احياء المدينة القديمة ، وهومنزل عالي البناء فسيح الارجاء كثير الحجرات، بني على النمط القديم . ابتناه جدهم الراحل ايام عزه ، ايام كان شيخا للمدينة ويشترك في الاقامة به معهم اعمامه الثلاثة واسرهم الكبيرة ، وقد شهد ذلك المنزل ميلاد معظم افراد الاسرة وهو واحد منهم .

وعندما بلغ الثلاثة عشر من العمر - وهي السنة التي التحق فيها بالسنة الاولى من التعليم الثانوي - انضمت الى الحي اسرة جديدة استقرت بمنزل قريب من منزلهم تعود صاحبه على ايجاره منذ عدة سنوات بعد ان انتقل هو واسرته الى منزل جديد . والاسرة الجديدة الوافدة على الحي ترجع في نسبها الى احدى العائلات العريقة المعروفة بالمدينة ، وربما يعمل صاحبها محاسبا بادارة المالية وقد تركت المدينة منذ عدة سنوات لتأخذ في التنقل بين مختلف مدن الوطن تبعا لاوامر النقل التي كانت تصدر الى رئيسها من وقت لاخر ، واخيرا وبعد تطواف شاق طويل واغتراب مر ثقيل فرض عليها سنوات طويلة عادت الى موطنها الاصلي بعد ان عين رئيسها بمركز مالية المدينة ، وهي تضم الى جانب الاب والام اربعة ابناء اصغرهم فتاة في الحادية عشر من عمرها على غاية من الجمال وحسن الخلق تدعى مها ، وأحس الفتى بقلبه الصغير يهفو اليها منذ ان وقع نظره عليها اول مرة حين شاهدها ذات صباح وهي تخرج وعاء القمامة لتضعه بجانب باب المنزل ، ثم التقى بها مرات بعد ذلك اثناء ذهابها الى المدرسة او عند عودتها منها ، او خلال ذهابها الى دكان الحي لابتياع بعض الاشياء الصغيرة او وهي راجعة منه ، وكان يتحرق شوقا الى سماع صوتها والتحدث اليها .

وفكر طويلا في اختلاق اية حجة لتبادل الحديث معها ، ومضى ينتقي من الكلمات أجملها وأبلغها ليقولها لها حتى حانت الفرصة لكن الشجاعة كانت تخونه في النهاية ويظل يحترق بنار رغبته وعجزه اياما اخرى ، حتى كان يوم احد - وهو اليوم الذي تتعطل فيه الدراسة - وبينما كان يجتاز سقيفة المنزل في طريقه الى الخارج طرق الباب طرقات خفيفة فأسرع الخطو وفتح الباب وهزته المفاجأة ، لقد كانت هي بكل سحرها وجمالها واشواقها وتسمر مكانه وقلبه الصغير يخفق بين ضلوعه ..

كانت مرتدية صدارا احمر من الصوف وتنورة من القطيفة يضرب لونها الى الزرقة وحذاء احمر عالي الكعب ، تطوق جيدها العاجي الممرد بسلسلة ذهبية تدلى منها على صدرها الكاعب قلب صغير، وقد ارسلت شعرها الطويل الاسود حرا طليقا وراء ظهرها .

قالت ووجهها يشرق بالابتسام :

- صباح الخير ..

فهمهم وكأنه يحاول النطق لاول مرة وقد خيل اليه ان لسانه قد اصابه الشلل :

- ص... صباح .. الخير

وسألته وهي تبعد عن وجهها خصلة الشعر الفاتنة وترجعها الى الخلف في حركة رشيقة ساحرة :

- هل أمك موجودة ..؟

فرد عليها في نشوة غامرة :

- بلى .. انها بالداخل .. تفضلي ... تفضلي .

فخفضت رأسها في حياء وهي تقول :

- شكرا .. ارجو ان تخبرها اني اريدها.
قال :
- حاضر .

وانطلق يعدو الى الداخل كأن الجن ركبته .. وأخبر امه بأمر الفتاة فخفت اليها لترى حاجتها .
ووقف هو بعيدا وسع امه تسلم عليها بحرارة وتلح عليها بالدخول ، وتهادى اليه صوت الفتاة كموسيقى ناعمة وهي تعتذر عن تلبية دعوة امه بكلمات كلها لطف وادب .

ودار بين ام فاضل والفتاة حوار قصير لم يصل الى سمعه منه شيء ، ثم سمع والدته تودع الفتاة وتبلغها السلام الى امها .
وانطلق في خطوات سريعة حتى كاد يصطدم بأمه في السقيفة .
ولحق بالفتاة قبل ان تبتعد كثيرا وتوقف عن العدو وأخذ يسير بجانبها ، والتفتت ناحيته في فضول وعندما وقع نظرها عليه اعترتها هزة من تأثير المفاجأة وقال لها وهو يحاول الا يبدو مضطربا :
- اني سعيد بزيارتك الخاطفة لنا و ان لم تكن في الحقيقة زيارة بالمعنى الصحيح وارجو ان تعاودي زيارتنا زيارة حقيقية مرة اخرى والا ترفضي في المرة التالية دعوة أمي لك بالدخول كما فعلت اليوم .

لاح طيف ابتسامة مشرقة على وجهها المتورد الجميل وسمعها تردد في شبه همس :
- ان شاء الله .
وانطلقت تعدو وصوتها يتهادى اليه من بعيد كأنه نغمة شردت من لحن رائع عظيم :
- مع السلامة ...

وتسمر مكانه وقد أخذته المفاجأة لم يكن يتوقع ان تتركه بهذه السرعة . ومضى يتبعها ببصره وهي تعدو كالحلم الجميل وبينما كانت تهم بالدخول منزلهم هتف بصوت عال وهو يلوح لها بيده :
- مع السلامة ...

ورآها وهي ترفع يدها قليلا .. ثم تندفع الى الداخل ، وغمره شعور بالراحة والسعادة ، وقد زاد من سعادته ان الزقاق في تلك اللحظات الجميلة المختلسة كان خاليا من المارة ومن النساء المتطلعات من الابواب والنوافذ في فضول . لم يكن به غيرهما ، ومنذ ذلك اليوم اصبح يجد من الشجاعة قدرا كافيا لمخاطبتها كلما لقيها سائرة في الطريق او واقفة امام منزلهم او اثناء زياراتها القصيرة لهم .

وقد تم التعارف بين امها ووالدته على اثر زيارة قامت بها امه اليهم للتسليم على والدتها والتعرف عليها باعتبارها جارة جديدة ، وبعد ايام جاءت ام الفتاة لرد الزيارة ومنذ ذلك الوقت بدأ التزاور وتبادل الهدايا بين الاسرتين . وتم التعارف بين والد فاضل ووالدها وبمرور الايام ..ازدادت العلاقة توثقا بين الاسرتين .

وبدأت الايام في كتابة قصة حب كبير حب عف برىء جمع بين الشابين فاضل ومها ، وأخذ يكبر معهما على الايام ، وانتقلت اسرة فاضل الى المنزل الجديد الذي اقامه والده بأجمل ضواحي المدينة ، وبعدها بزمن قليل انتقلت اسرة مها هي الاخرى الى البيت الذي اشتره بوسط المدينة الجديدة ، وظلت الصلة بين الاسرتين الصديقتين قائمة برغم البعد الذي اصبح يفصل بينهما ، يتبادلان الزيارات والهدايا كالعادة وخاصة في ايام الاعياد والمناسبات .

وأنهى فاضل دراسته الثانوية والتحق بوظيفة ادارية باحدى المؤسسات العامة ، وبعد مرور شهور قليلة على التحاقه بوظيفته عزم على الزواج ، وذات يوم قرر مفاتحة امه في الموضوع ، ولم يخف عنها ان قلبه متعلق بابنة السيد عبد الحميد وانها هي الاخرى تكن له نفس المشاعر .

وتغمر الفرحة قلب الام بالنبأ السعيد السار الذي يزفه اليها ابنها فتحتضنه في فرحة وحنان قائلة وهي تكاد تشرق بدمعها :
- انه يوم السعد ذلك اليوم الذي اراك فيه عريسا ، وارى عروسك فيه ترفل بثوب الزفاف .. لقد احسنت الاختيار يا ولدي ان مها فتاة جميلة وعلى درجة عالية من التربية والذكاء الى جانب انها متعلمة واسرتها تتمتع بسمعة طيبة وذكر حسن بين جميع الاوساط ، وهي قبل ذلك كله من مستوانا وطبقتنا والعلاقات التي تربط بيننا حسنة ووثيقة ، ولا احسب اننا ، سنجد اسرة نصهر اليها افضل من اسرة السيد عبد الحميد ولا فتاة اليق لك من مها زوجة .

ولا اظنهم هم كذلك سيجدون قرينا لابنتهم افضل منك ياولدي .

وزغردت الفرحة في اعماق الشاب المحب واختضن امه ومضى يقبلها في شكر وامتنان وهو يقول " اشكرك يا اماه وارجو ان يحقق الله الامل على يدك " فربتت على كتفه في محبة وحنان وهي تقول بلهجة الواثق من بلوغ الهدف : " اطمئن يا عزيزي واسترح بالا ، سوف اخاطب والدك هذا المساء ليفاتح بدوره السيد عبد الحميد في الامر ولن يكون الا الخير ان شاء الله .."

ويردد فاضل من ورائها دون وعي : " ان شاء الله ". وتتركه امه لفرحته واحلامه وتنصرف لانهاء بعض اعمال البيت . ويتم لفاضل ما اراد ويتحقق الحلم العظيم ويتحول الى حقيقة واقعة حينما زفت اليه حبيبة الفؤاد في حفل صاخب بهيج حضره جمع غفير من اقارب واصدقاء الاسرتين . ولم يبخل والد فاضل بالمال على عرس ابنه فبذله بسخاء وكرم حتى تظهر الاسرة بالمظهر اللائق بامثالها .

ولم تمض الا اسابيع قليلة على زواج فاضل حتى انتقل بزوجته الى مسكن جديد اكتراه باحد الاحياء السكنية المقامة حديثا عند اطراف المدينة التي اصبحت تعج بأهلها وتضيق بساكنيها .

لم يكن فاضل يرغب في ذلك لكن والده هو الذي طلب منه ان يستقل بنفسه برغم اعتراض ام فاضل وممانعتها وعاش فاضل مع زوجته في بيتها الجديد الصغير الهادئ في حب وسعادة وسلام لا يعكر صفوهما شيء .

وذات ليلة بينما كان يتهيأ للنوم اسرت اليه زوجته في شيء من الحياء والتردد بأنها تنتظر مولودا ، وكان قد انقضى على زواجهما عام وبضعة شهور ، وكاد يجن من الفرح واخذها بين ذراعيه في قوة وقد دس وجهه في شعرها الناعم المعطر متمتما في شبه صلاة : الحمد لله ، .. الف مبروك يا حبيبتي .. مبروك علينا جميعا ..

وترك زوجته في رفق وسحب نفسه من على السرير في عجلة وشرع في نزع منامته وارتداء ملابسه من جديد ، بينما جلست زوجته في السرير معتمدة على يديها ملقية برأسها الى الخلف وقد تدلى شعرها حتى لامس الفراش ومضت تراقبه في ارتياح وفضول وسمعته يقول لها دون ان يلتفت اليها وكان منهمكا في شد رباط عنقه : " هيا انهضي يا عزيزتي واعدي نفسك للخروج ، يجب ان يعلم ابي وامي بالخبر الليلة .."

ولم تحاول ان تجعله يعدل عن رأيه وان يرجئ تلك الزيارة الى الغد لانها تعرفه عنيدا وليس من السهل اقناعه بترك موقف عزم على اتخاذه .

وفي جو عائلي يعبق بالمسرة والمودة والصفاء امضى فاضل يومها شطرا من الليل صحبة افراد اسرته حتى الصبية الصغار رفضوا الذهاب الى مخادعهم وابوا الا ان يشاركوا سمرهم ، لقد احسوا بفطرتهم بأن الاسرة سعيدة لكنهم لم يستطيعوا الكشف عن اسباب تلك السعادة ، وهو امر لا يعنيهم بقدر ما يعنيهم ان تكون البهجة تغمر الاسرة دائما ، وان يشاركوا في جني ثمرات تلك البهجة .

وفي ساعة متأخرة من الليل عاد فاضل وزوجته الى عشهما الجميل الهادئ على متن سيارة صغيرة جديدة كان فاضل قد ابتاعها منذ شهر وهي وان كانت صغيرة الحجم لكنها انيقة .

ومرت الايام بسرعة ، وحان الوقت لتضع مها مولودها ، وانتقلت هي وزوجها الى منزل الاسرة بطلب من ام فاضل حتى تكون زوجة ابنها قريبة منها وتحت نظرها لتقوم بنفسها على خدمتها والسهر عليها حيث يتوفر لها ببيت الاسرة من الراحة الجسمية والنفسية مالا يمكن ان يتوفر لها ببيت زوجها .

وبدأ طبيب الاسرة يقوم بزيارة المنزل من حين لاخر لمراقبة صحة الشابة الحامل ووصف ما يلزم لهامن مسكنات ومنشطات ، وقبل حلول موعد الوضع باسبوع تقريبا امر بنقلها الى المستشفى حتى يمكن مراقبة حالتها الصحية عن كثب ومتابعة ما قد يطرأ عليها من تغيرات .

وجاء اليوم الموعود .. وبدأ المخاض والتحق كبار افراد الاسرة بالمستشفى ، وانضم اليهم فاضل بعد ان استأذن من رئيسه بالتغيب لحظات وقد اصطحب معه ام مها ، وسأل فاضل المولدة المشرفة عليها فأخبرته بأن حالتها حسنة وان كل شيء يسير سيرا عاديا و لا

لزوم للقلق ، وبعد ان اطمأن الجميع ترك المستشفى ليلتحق بعمله .

ولأول مرة شعر بعدم قدرته على اداء عمله ولاحظ رفاقه ما يعانيه من قلق واضطراب وشرود فمضوا يخففون عنه ويداعبونه ويسرون عنه ، فيتقبل منهم ذلك شاكرا لكنه يظل لا يستطيع التخلص من قلقه وشروده .

ويحين موعد ترك العمل فيسرع بالخروج ويركب سيارته وينطلق بها في شوارع المدينة قاصدا المستشفى وهناك وجد الجميع حيث تركهم منذ الصباح ، والحالة على ماهي عليه ، ومرت ساعات حرجة عصيبة كان فاضل اثناءها اكثر الجميع انفعالا وقلقا ومعاناة ، لقد عاش ما هو اكثر من المخاض ، كان يسمع من قبل ان الزوج يوم وضع امرأته يتعذب اكثر مما تتعذب لكنه لم يكن يصدق ذلك اما الان فقد سلم بصدق ذلك القول ..وبعد ساعات من الترقب والعذاب والانتظار خرج الطبيب الجراح تتبعه المولدة من غرفة التوليد التي نقلت اليهما فأسرع اليهما وسأل الطبيب في لهفة وهو ينقل نظره بينه وبين القابلة :
- كيف الحال يا دكتور ..؟

ويرد عليه الطبيب دون ان يلتفت اليه او ان يتوقف عن السير :
- اظنك تسأل عن السيدة التي ..
ويقاطعه فاضل قائلا : نعم .. نعم
ويعاود الطبيب السؤال من جديد :
- انها تدعى مها على ما اعتقد ؟
ويرد فاضل باقتضاب :
- نعم .

ولكن الطبيب لا يريحه ويعود الى سؤاله مرة اخرى :
- هل انت زوجها ؟

وينتاب فاضل شعور بالضيق والتبرم فيسأل الطبيب بدوره بصوت مرتفع كأنه يصرخ في وجهه او يهم بصفعة :
- وبعد .. ماذا حدث يا سيدي ؟ ومامعنى كل هذه الاسئلة ..؟
فيأتيه جواب الطبيب مطمنا لفؤاده ، وقاضيا على كل اسباب القلق والخوف التي بدأت تتحرك في اعماقه :
- لاشيء يا سيدي الا الخير .

ثم يلتفت الى فاضل وظل ابتسامة يلوح على شفتيه ويتابع يقول :
- لقد وضعت زوجتك مولودا ذكرا وهي وليدها في أحسن حال .

ويتوقف فاضل عن السير فجأة كأنه شد الى الارض بقوة لا تقاوم ، ويطرق سمعه صوت المولدة قبل ان تتوارى هي والطبيب عن نظره يمنعطف احد الممرات :
- مبروك .. انه ولد جميل للغاية .

وترن الكلمات في أذنيه كرجع لحن جميل ، ويحس بان الفرحة تغمر كيانه كله ، ويترك مكانه ويعود أدراجه مسرع الخطى وهو يردد بينه وبين نفسه في سعادة ونشوة : " ولد .. ولد جميل ".

ويجد الجميع في انتظاره على احر من الجمر فيزف اليهم النبأ السعيد .. وترتفع الاصوات بالحمد والشكر لله ويمضي الجميع يتبادلون التهاني والقبلات وتتقدم منه امه وتسأله :
- هل يمكننا رؤية مها ؟
فيجيبها :

- لا اظنهم يسمحون لنا بذلك ، لكنني سأبحث هذا الامر مع ادارة المستشفى .

يقول ذلك ويتحرك لاستطلاع راي الادارة في موضوع الزيارة المقترحة ويعود بعد قليل ليقول مخاطبا الجميع :
- يمكننا رؤيتها في المساء ، وقد اكدوا لي انها بخير هي والوليد ، وان الولادة كانت طبيعية ، وهي الان بصدد تلقي العلاج اللازم ويجب ان تستريح بضع ساعات قبل ان يسمح لاحد بزيارتها .

وبعد ايام غادرت مها المستشفى لتنضم الى اسرة زوجها من جديد حيث كان الجميع يتسابقون في العناية بها وبطفلها ويحيطونهما بوافر الحب والاهتمام

كانت اسرتها تزورها بصورة منتظمة وحين استعادت الام الشابة كامل صحتها اعلن زوجها ذات يوم انهما سيعودان الى بيتهما . وقبل عودتهما اقامت اسرة فاضل وليمة كبرى دعت اليها اسرة مها وبعض الاقارب قدمت خلالها بعض الهدايا الى مها وطفلها ، وفي جو من الصفاء والمودة قضى الجميع ساعات جميلة سعيدة مرحة وفي المساء عادت الاسرة الصغيرة السعيدة الى وكرها مشيعة باجمل الامنيات والدعوات .

ومرت شهور واخذ الوليد يكبر ، ويشتد عوده وقد اسماه جده لابيه " فتحي"

كان لفاضل اجوار اغلبهم من طبقة

الموظفين لكن لم تكن له اية صلة بهم ، وكانت علاقته برجال تلك الاسر لا تعدو تبادل التحية معهم عندما يلقى احدهم ، على عكس امرأته فقد كانت لها صداقات مع ربات بعض تلك الاسر ، كن يزرنها من تلقاء انفسهن .
اما هي فلم تقم ولو بزيارة واحدة لبيت واحدة منهن برغم الحاحهن عليها في تلك الزيارة عديد المرات ، وكانت تتعلل دائما بأن زوجها يكره ان تغادر المنزل

الا الى بيت اسرته او اسرة ابيها ، ولم يكن ذلك صحيحا في الحقيقة ولكن مهما كانت بطبعها لا تميل الى الاختلاط وخاصة بمن هم غرباء عنها ، وتضيق كثيرا بتلك اللقاءات التي تضم مجموعة من النساء حيث يكثر فيها التفاخر والمباهاة بينهن والخوض في حياة الناس الخاصة والتجريح في بعض القريبات والصديقات والجارات والطعن في اعراضهن ظلما وعدوانا في اغلب الاحيان .
لم يكن فاضل يرتاح لوجود اولئك النسوة بمنزله وكذلك كان الحال بالنسبة الى زوجته لكنها كانت مكرهه .. وماذا بيدها ان تعمل.. ؟ انها لم تدعهن وقد حضرن لزيارتها من تلقاء أنفسهن .
فهل تطردهن .. ؟ ان اخلاقها تمنعها من ذلك.

وكان من بين تلك الجارات امرأة ،

كبيرة ارملة لها ولد وحيد في الرابعة والعشرين من عمره وهو شاب وسيم يعمل باحدى المطابع .

كانت المرأة كثيرة التردد على مها لا تغيب عنها يوما واحدا ومنزلها يقع في مواجهة منزل فاضل مباشرة .

وذات يوم عاد فاضل من عمله الى المنزل كالعادة وفتح الباب ودخل ، وبغرفة الجلوس وجد جارته الارملة تجلس مع زوجته تبادلها الحديث وقد وضعت ابنه في حجرها فسلم عليها وتابع طريقه الى غرفته ليتخفف من بعض ملابسه وبينما كان يقوم بنزع ربطة عنقه بلغ الى سمعه صوت المرأة وهي تقول لزوجته :
- يامها ان ابنك فيه شبه كبير من ولدي سمير .. ؟ سبحان الخالق ..وصدقيني يا عزيزتي انه في كثير من الاحيان وانا اتطلع اليه يخيل الي انه ولدي سمير يوم كان صبيا .

وتدوي الكلمات في اذني فاضل

دويا رهيبا كالدوي الذي تحدثه طبول الحرب في واسع الفلوات .

وفي حركة عصبية يغلق عليه باب الغرفة ويمضي يذرع ارضها في توتر وضيق ثم يعود ويرتدي ملابسه من جديد ويغادر الغرفة وقد اعتزم القيام بجولة قصيرة بشوارع المدينة .

وبقاعة الجلوس وجد جارته الارملة تتهيأ للانصراف .
وتسأله زوجته هل سيخرج قبل ان يتغدى ؟ فيجيبها بسرعة واقتضاب ودون ان يلتفت اليها بأنه سيعود بعد قليل ، والقى بنفسه في الشارع وسط جموع المارة ومضى يسير دون غاية او هدف وكلمات جارته الارملة تطن في أذنيه طنينا غريبا يبعث في نفسه الحيرة والقلق .
وبعد ان سار طويلا وشعر بالاعياء ينتابه نظر الى ساعته معصمه فعلم ان موعد رجوعه الى عمله قد اقترب فعاد ادراجه ، وقد هدأت نفسه بعض الشيء ، وفي المنزل وجد زوجته في انتظاره يكاد القلق يعصف بها لغيابه المفاجيء غير المعتاد ، فطمأنها بكلمات لطيفة وأوهمها بأنه كان في مهمة خاصة تتعلق بأحد الاصدقاء وتناول طعامه على عجل ثم غادر البيت ليلتحق بعمله .

ومنذ ذلك اليوم بدأ سلوكه مع زوجته يتغير وكذلك مع كل المتصلين به . صار قليل الكلام سريع الانفعال ميالا للوحدة والانطواء ، ولاول مرة في حياته عرف الارق ، ومن حين الاخر كان يغافل زوجته ليجلس امام مهد ابنه ويأخذ في التطلع الى وجهه الباسم البريء في تساؤل وحيرة والم . حقا انه يشبه ابن جارتهم الارملة العجوز شبها كبيرا .
ماذا يعني ذلك ؟ هل تكون زوجته توحمت على ذلك الشاب ؟ ان العلم لا يعترف بالوحم بالمعنى المتعارف عليه عند العامة انهم يزعمون ان المرأة الحامل اذا كانت تحب شخصا معينا حبا شديدا او اذا كانت تكره شخصا كرها قويا في فترة الوحم يجيء مولودها شبيها بالشخص الذي تحبه او ذاك الذي تكرهه .

اذا كان ما تدعيه العامة صحيحا فان مها - اثناء مدة الوحم - قد تكون حملت لذلك الشاب مشاعر المحبة او الكراهية مما جعل الطفل يأتي وبه شبه منه . ولكن لم تكرهه .. ؟ ليس هناك من سبب يحملها على كراهيته والاصح ان تكون احبته .. اشتهته ..

يا ويلاه .. انه يتذكر الان بكل وضوح انه رأى ذلك الشاب المرار العديدة يقف امام منزلهم المواجه لمنزل فاضل . ويذكر كذلك انه عندما كان عائدا الى بيته ذات يوم وجده يطرق باب المنزل وحينما استفسره عن حاجته ابلغه ان امه عندهم وانه يريدها لامر هام . ومرة اخرى طرق الباب ففتح له بنفسه حينما جاء يحمل بعض الاشياء ، قال ان امه طلبت منه احضارها من احدى الاسر لاطلاع مها عليها . وبدأ الشك ينخر صدره في عناد واصرار وأصبح كل شيء بنظره مصطبغا بلون السواد . كان يتعذب بصورة مروعة ، انه يحب امرأته اعظم الحب ، يحب كل شيء فيها :
جمالها ، اخلاقها ، قناعتها ، حسن تدبيرها ، تفانيها في خدمته ، انها صورة صادقة للمرأة المثالية وربة البيت الكاملة لكن هذا الطفل هذا الشبه الغريب بينه وبين جارهم الشاب ؟

وعاش اياما وليالي يحترق، لم يقدر على العيش خارج حجيم الشك والظن ويوما بعد يوم اخذ الشك عنده يتحول الى يقين دون ان تكون لديه حجة مادية تؤيد ذلك الشك الذي ملأ فكره وقلبه .. انه لا يملك دليلا واحدا حتى ولو كان بسيطا على خيانة زوجته له لكنه مع ذلك صار مقتنعا بخيانتها ، كيف ؟ انه هو نفسه لا يدري ولا يجد لذلك تعليلا او تفسيرا .

وأحست زوجته بالتحول الذي طرأ عليه فعملت جهدها من اجل التخفيف عنه وتوفير اقصى ما يمكن من اسباب الراحة له .
وكثيرا ما الحت عليه بأن يفتح لها صدره ويكاشفها بمتاعبه التي تعذبه وتشقيه فكان في البداية يتهرب من اجابتها باللف والمراوغة .
ثم صار ينتهرها بعد ذلك ويصرخ فيها بالا تعود لسؤاله مرة اخرى عن ذلك الامر الذي لا يهم احدا غيره .. اصبح يضيق بالجلوس معها . وفي معظم الاحيان كان يتناول طعامه خارج المنزل ، كذلك لم يعد يشارك مها المبيت بغرفة نومها واستقل بغرفة اخرى .

انتاب مها حزن عظيم لتغير زوجها نحوها فاعتصمت بغرفتها لا تكادتبرحها الا لتأدية بعض اعمال البيت او للقيام على خدمة زوجها ، وطالما شهدتها غرفتها فيليل وحدتها الطويل مؤرقة الجفن دامعة العينين ، كانت تتألم في صمت عجيب ، لم تبح بمأساتها وشكواها لاحد حتى لامها او لام فاضل ، كانت تبدو طبيعية امام الجميع وظلت تحتفظ بسرها لنفسها ،وكان عذابها اعظم من ان يحتمل ومع ذلك استطاعت ان تظهر بمظهر المرأة السعيدة سواء امام والدها او امها او امام حماها وحماتها وامام كل الاقارب .. والاصدقاء والاجوار .. وذات ليلة بينما كان فاضل يبحث عن بعض اشيائه فوق خزانة السفرة عثر على صورة صغيرة لجارهم الشاب ابن الارملة العجوز كانت قد سقطت صباح ذلك اليوم من ام الفتى حين جاءت لزيارة مها كعادتها ، وقد سقطت منها عندما اخرجت محفظتها الصغيرة لتعيد الى مها الدنانير الثلاثة التي كانت قد اقترضتها منها منذ اسبوع ، وحين عثرت عليهامها وضعتها فوق الخزانة في اهمال بنية اعادتها لصاحبتها في زيارتها القادمة ، وكان الفتى قد ارسل تلك الصورة الى امه في العام الماضي، من الصحراء اثناء خدمته بالجيش الوطني

وقلب فاضل الصورة في يده وقرأ على ظهرها هذه الكلمات :
" الى احب الناس الي "
الى من تعيش في قلبي على الدوام مع امنياتي واشواقي القلبية "

وثارت الدماء في عروقه واحس برأسه ينفجر ، وأظلمت الدنيا في عينيه وهم بتمزيق تلك الصورة لكنه لم يفعل واعادها حيث وجدها ، وغادر المنزل ومضى لا يلوي على شيء وفي رأسه تضطرب الف فكرة وينتفض الف سؤال ، وقضى ساعات الليل متنقلا بين مقاهي المدينة ودوربها ، وفي ساعة متأخرة عاد الى المنزل وفتح الباب في هدوء دون ان يحدث اية حركة واتجه نحو غرفة الجلوس التي كانت غارقة في الصمت والظلام ، والقى بنفسه على المقعد الوثير في اعياء ومضى يقلب الامر ويدخن ، لقد اصبح الان على يقين من خيانة زوجته له اكثر من اي وقت مضى ، ونهض من مجلسه واتجه نحو الغرفة التي تنام بها زوجته وفتحبابها في رفق وتقدم خطوات وعندماتوسطها توقف

كان ينتشر في الغرفة ضوء خافت ينبعث من مصباح كهربائي صغير موضوع ، فوق مائدة صغيرة بجوار الفراش ، واتجه بنظره نحو الفراش فرأى مها مستغرقة في النوم مرتدية غلالتها الليلية الشفافة الناعمة وقد انتشر شعرها المسرح على الوسادة في صورة مثيرة فاتنة وقد تغطت بلحاف ملون جميل أخفى كل بدنها الا

صدرها الممتلئ الشهي فقد تحرر من اسر الغطاء وبرز من تحت الغلالة الشفافة زاخرا بالفتنة والرغبة والانوثة ، ومن بين ظلمة شعرها بدأ وجهها مشرقا جميلا يلوح عليه طيف ابتسامة رقيقة زادته اشراقا وجاذبية وغير بعيد منها كان ينام طفلها في سريره الانيق الصغير في وداعة وسكون . وألقى نظرة سريعة شاملة على ابنه ثم عاد يتطلع الى وجه زوجته النائمة وتخيل جاره الشاب يشاركها الفراش .. فراشه هو .. فتشتغل النار في صدر فاضل ويتحول الى كتلة من الثورة والنقمة والحقد ، ويغادر الغرفة ويتجه الى غرفة المطبخ حيث يمكث لحظات ثم يتركها ويمضي الى خارج المنزل في اتجاه خمارة النجمة الحمراء القريبة حيث تعود جاره الشاب السهر مع زمرة من اصدقائه .

ودخل الحانة فوجدها تعج بعشرات الرواد الذين كانوا يتبادلون الاحاديث والدعابات والشتائم والضحكات في صخب وضجيج .

ومضى يبحث بعينيه وسط سحب دخان التبغ التي تملأ جوانب الحانة عن جاره الشاب بين الرواد ، وزكمت انفه رائحة التبغ المحترق والسمك المقلي والرائحة المنبثة من دور المياه المشرعة الابواب ،فاعتراه شعور بالتقزز والغثيان . وبأحد اركان الحانة لمح الشاب جالسا مع بعض رفاقه فبحث عن مقعد خال ، وبعد طول البحث عثر عليه فسحبه بعيدا وجلس في ضيق وتشنج متخذا له مكانا قرب مدخل الخمارة ، وصاح بالنادل في عصبية ظاهرة فأسرع اليه ملبيا النداء فطلب منه ان يحضر له قهوة مضغوطة " ايكسبريس "وعاد النادل بعد قليل حاملا اليه ما طلب ، فنقده ثمن القهوة واخرج لفافة واشعلها ومضى يدخن في انفعال مرتشفا قليلا من القهوة من حين لآخر وقد ركز نظره على الناحية التي يجلس فيها الشاب وجماعته ولم يمض وقت طويل حتى رآه ينهض ويودع اصحابه ، ثم يتجه الى باب الحانة فنهض فاضل بدوره ويسبقه للخروج ويقف بعيدا في ظل احدى الاشجار التي تنتصب على جانبي الطريق ، وشاهد الشاب يغادر الخمارة آخذا طريق العودة الى بيته فترك مكمنه ومضى يتبعه من بعيد وأسرع الخطو حينما رآه يقترب من موضع المقبرة القديمة التي تقرر تحويلها الى منطقة سكنية ، كان المكان ما يزال معزولا عن العمران تقريبا يكتنفه الظلام من كل جوانبه الا من نور بسيط يتسرب اليه من مصابيح بعض الطرقات المرتفعة التي تشرف عليه من هذه الجهة او تلك .

وأسرع الخطى حتى كاد يعدو ... وحينما صار على مقربة منه تمهل في سيره حتى يستعيد كامل قواه ، وعندما انحدر بهما الطريق وانعطف ، أدخل فاضل يده اليمنى في جيب سترته الداخلي وتحسس السكين التي ترقد فيه وأمسك بمقبضها بقوة ، وتراءت له صورة زوجته في رقدتها المثيرة فازدادت دقات قلبه واشتعلت النار في أعماقه وتحول كيانه كله الى كتلة من الغضب والحقد والكراهية لذلك الشاب الذي يسير امامه آمنا مطمئنا ولزوجته الخائنة الجحود التي ترقد في فراشها في سلام .

ولحق به في بداية المنعطف واستل السكين من جيب سترته وقد تصلبت اصابعه على مقبضها وتجاوزه خطوة ، ثم استدار اليه وطعنه في بطنه بكل قوة مرة واخرى ثم طعنه في صدره عدة طعنات واخذت الشاب المفاجأة فلم يقم بأية حركة دفاع او مقاومة .

وصرخ صرخات خافتة مكبوتة وسقط على جانب الطريق يتلوى ويئن وقد ارتسمت على وجهه اصدق صور الرعب ، ثم انتفض جسده انتفاضة اخيرة . ونظر فاضل الى

الجسد الساكن امامه الملطخ بالدماء وانتابه احساس بالمرارة والخوف والندم لكنه لم يدم طويلا وسرعان ما حل محله احساس بالهدوء والارتياح ، والقى بسكين المطبخ الملوثة بالدم بجانب الجثة ثم عاد ادراجه متجها الى اقرب مركز شرطة اليه ، حيث تم ايقافه بعد اعترافه بجريمته ،..

وبسجنه مضى فاضل يتابع سير القضية من خلال ما تكتبه الصحافة عنها بين الحين والحين ، وذات صباح جاءه حارس الجناح الذي ينزل به وسلمه مجموعة الصحف التي تعود مطالعتها كل يوم منذ التحاقه بالسجن وقال له وهو يدفعها اليه :

ـ لقد ظهر بالصحف اليوم تقرير الطبيب الشرعي في القضية وتناول منه فاضل رزمة الصحف في سرعة وتلهف وهو يقول : هاتها ..شكرا ..

وأسرع الى فراشه وتناول احداها وشرع يقرأ ، كان الارتياح باديا عليه وهو يقرأ وقد لفتت نظره صورة خاصة بتقرير الطبيب الشرعي هذه الفقرات : تبين بعد فحص جثة القتيل وتشريحها انه كان يفتقد القدرة على الانجاب نتيجة نقص عضوي بجهازه التناسلي .

واشعل لفافة وجذب منها نفسا طويلا ، ثم استند على الجدار وغمغم في همس ، وقد ترقرقت في عينيه بعض الدموع وفي أعماقه تصطرع شتى الانفعالات . . والاحاسيس ..
ـ ويل للانسان من نفسه ..

محمد الخموس الحناشي

انت ... فى رؤاى

تمثلت في رؤاي
نجمة كلها عين
تشع الواناً كاللحن ،
برقعها الشفاف ، ووشاحها الفضفاض
يلامس اطرافها نثار الغيوم ،
تعلو وتنخفض سادرة في ظلال السراب
سراب الشوق

والفضاء في صمته القدسي،
نشوان ، الا من ومضات لاهثة تنطلق ، بين الفينة والاخرى ،
من نيازك تمر في حلمه

تمثال رائع يحمل رأساً كلها عين .
دخان .. بريق يعمي البصر .. ضوضاء ..
سديم يسبح في صمت .

حلب

اورخان ميسر

حنـــان

حامد حسن

ندي اللهيب على الشفاه ، الظامئات ، القانيه
يا للغوى ٠٠ وأين منك شفتيك ثغر الغاوية ؟ ؟
حيث الشباب صريع جامحة الميول العاتيه
يمشي ٠٠٠ وأشواك الحياة ، بدربه ٠٠ والهاوية
غليت دماءهم على وهج الرغاب الضاريه
كشفوا قناعهم فأشرقت الحقيقة عاريه

فاذا تخطاك النعيم ، اليك تلك الزاويه
وابعث خيالك آثما يرتاد تلك الناحيه
لا تلقه في السفح عجزا عن صعود الرابيه
وترشف النغم الغنوج ، على شفاه الشاديه
فتذوب وجدا ٠٠٠ والغدير تذوب فيه الساقيه
طلعت بصحراء الحياة ، منى ، ورفت غاديه

ان الذي شرع الغرام ، اجاز رجم الزانيه
والعدل ٠٠٠ ان لايضحك الجاني ، وتبكي الجانيه
لك نشوة الصهباء ، والتحطيم حظ الخابيه
والخمر ، ان خبثت ، فليس الذنب ذنب الانيه
فاسكب حنانك رحمة تسع الجراح الداميه
أولا ٠٠٠ فعللها بنعماء الحياة ٠٠٠ الثانيه
فالرحمة السمحاء ما كانت لغير الخاطيه
فامطر بصحراء الحياة ندي حبك غاديه

حامد حسن

اطفال كالبالغين و بالغون كالاطفال

التأهيل الاجتماعي في عصر الالكترون

بقلم : جوشوا ميرويتز ـــــ ترجمة : عبد الكريم ناصيف

في النصف الاول من القرن العشرين كان الناس ينظرون الى الطفولة باعتبارها مرحلة براءة وانعزال ، مرحلة ينبغي فيها توفير الحماية للاطفال من حقائق الحياة البشعة التي يعيشها البالغون، ولم يكن لباسهم يختلف عن لباس البالغين وحسب ، وبل كان لكل منهما لغته المستقلة ايضا ، نظرا لان بعض الكلمات والموضوعات - كالولادة ، الموت ، الجنس ، المال - كانت تعتبر غير مناسبة لسماع الاطفال ، علاوة على ذلك ، فقد كان هناك نظام صارم لتدرج السن تعززه بنية المدرسة ذاتها ، ذلك النظام كان يحدد ماينبغي على الطفل ان يعلمه ويفعله في سن معينة ، غير ان السنوات الثلاثين الاخيرة شهدت تغيرا ملحوظا في صورة الطفل ودوره ، فالطفولة كفترة من الحياة تحظى بالحماية والوقاية كادت تزول تقريبا .

ان الاطفال اليوم يبدون أقل " طفولة " فهم يتكلمون اشبه بطريقة البالغين ويلبسون باسلوب اشبه بلباس البالغين ، كما يتصرفون على نحو اقرب لتصرف البالغين ، هذا الاتجاه يمكن ان ندعوه بـ " نهاية الطفولة " لكن هذا ينبئنا بنصف القصة ليس الا ، ذلك انه بدون احساس واضح بالطفولة ، لا يمكن ان يكون هناك قوة متميزة عن البلوغ ، والحقيقة ثمة دلالات على ان الكثير ممن دخلوا طور البلوغ خلال السنوات العشرين الماضية ما يزالون يتكلمون ويلبسون ويتصرفون وكأنهم اطفال كبار ، ان ما يحدث في حضارتنا الان انما هو اندماج شامل بين الطفولة والبلوغ ، وفي هذا المقال سأوجز باختصار التغيرات الحديثة التي طرأت على الادوار الاجتماعية للاطفال والبالغين ومن ثم استكشف الاحتمال القائل بأن هذه التغيرات ترتبط جزئيا بانتقالنا من " ثقافة الكتاب " الى " ثقافة التلفزيون " .

ان العلامة الاوضح التي تدل على الاختلاف الحاصل في المكانة الاجتماعية ضمن الاطار الثقافي انما هي الاختلاف في المظهر والملبس ، فالمكانة الدنيا التي كان يحتلها الاطفال انما كان يدل عليها في السابق اسلوب الملبس - سواء كان مايلبسونه هو البنطال القصير او بزة البحار او القميص الشبكي المزين برسوم كاريكاتورية وليست الدلالة هنا في ماكان يلبسه الاطفال بل في ان لباسهم كان يختلف عن لباس الكبار ، اما اليوم ، فان جولة صغيرة في شارع او حديقة من حدائق المدينة تدل على ان عهد الملابس المختلفة التي تلبسها فئات العمر المختلفة قد ولى وانقضى ، فالاطفال يلبسون بذلات كبذلات الكبار ذات القطع الثلاث او ملابس مصممي الازياء ، فيما يبدو الكثير من البالغين اشبه بـ" اطفال كبار " في بنطلوناتهم " الجينز " او " الميكي ماوس " او " القمصان الشبكية " السوبرمان " والاحذية الخفيفة المصنوعة من القماش والمطاط ، والواقع ان كثيرا من البالغين يلبسون في هذه الايام ملابس اشبه " بملابس اللهو واللعب ، " ثم يذهبون الى اماكن عملهم - بما في ذلك البيت الابيض ، فضلا عن ذلك ، فقد ظهرت

اشكال جديدة من لباس " العمر الواحد وبنطال الجينز " الذي وضعه المصممون والذي يلبسه الكبار والصغار على حد سواء ، انما يمثل محاولة للجمع بين ملابس اللعب التي يلبسها الاطفال وملابس الكبار ذات الطراز الراقي ، وعلى ما يبدو ، ليس ثمة حدود لهذا الاتجاه نظرا لانه يغطي السوق الان اقمشة جينز كتانية مشجرة .

على ان هذا كله قد يبدو ظاهرة سطحية ، بذلات متشابهة تلبسها كائنات اجتماعية شديدة التباين ، لكن الصغار والكبار بدأوا ايضا يتصرفون تصرفات اكثر تشابها .
فوقفاتهم اوضاع جلوسهم وحركاتهم غدت كلها اكثر واكثر تشابها ، كما ان منظر الكبار الذين يجلسون متصالبي السيقان على الارض في مكان عام اويلعبون " لعب اطفال " لم يعد منظرا غير مألوف والواقع ، ان ما ظهر اخيرا من وسائل تسلية ولهو - كالفيديو والعاب الكمبيوتر - انما يشارك فيها الكبار والصغار على حد سواء .

كذلك باتت مفردات اللغة وصيغها المرتبطة - بالسن تندمج هي الاخرى، حتى ان كثيرا من الكلمات العامية ، العبارات التعابير البذيئة والبنى القواعدية باتت تستخدم على نحو مشترك من قبل دائرة واسعة من فئات العمر ، فالاطفال يتكلمون على نحو اشبه بالكبار والعكس صحيح ، زد على ذلك انه بينما كان الاطفال والبالغون ربما يسبون ويشتمون دائما دوائرهم الخاصة ، فانهم الان ، يفعلون ذلك مباشرة اي بعضهم امام البعض الاخر ، واذا كان الاطفال قد باتوا وعلى نحو متزايد ، ينادون الكبار - وفي حالات يكون هؤلاء الكبار اباءهم ، او امهاتهم - باسمائهم الاولى ، فان هذه الحقيقة ليست سوى دليل لغوي واضح على ان سلطة الكبار على الصغار تتلاشى وتزول .

كذلك لم يعد واضحا بعد ما هي الموضوعات التي ينبغي مناقشتها او عدم مناقشتها مع الاطفال ، وعلى اي حال، يبدو الاطفال الان وكأنهم يعرفون الكثير عن الموضوعات التي كانت في السابق محظورة عليهم قبل ان تدرج ضمن برامج تربيتهم المنزلية او المدرسية ، مثال على ذلك ، تبدو برامج التربية الجنسية والمخدرات ، وكأنها متخلفة تم تجاوزها باشواط بعيدة من قبل المراهقين الذين يعيشون تزايدا مسعورا في نشاطهم الجنسي واساءة استخدامهم للعقاقير ذات الآثار التخديرية ، فمنع الحمل والاجهاض والادمان على الكحول والانتحار باتت اليوم من " قضايا الاطفال " كما ان كثيرا من الاطفال الصغار يعبرونفي الوقت الحاضر عن مخاوفهم من الاهوال النووية التي تهدد العالم بالفناء .
في الماضي ، كانت قضية الولادة بالنسبة الى الاطفال تغلف بأساطير اللقالق ورؤوس الملفوف ، اما اليوم فان كثيرا من الاطفال باتوا يسمعون من الكبار كل شيء عن الولادة ويدخلون فيما تدعوه المستشفيات الان " بعملية التوليد العائلية " وفي بعض الحالات رغم انها ما تزال نادرة - يدعى الاطفال لحضور عمليات التوليد ذاتها .

كذلك ، فان اشياء كثيرة تتغير بالنسبة الى الكبار ، كالتعليم ، اختيار المهنة ، والمراحل التطورية التي كانت في السابق تبحث بصورة اساسية باعتبارها ذات صلة با لاطفال ، اما اليوم فان اعدادا متزايدة من البالغين تندرج في برامج تعليم الكبار ، وكثيرا ما يغير الانسان حياته المهنية في منتصف عمره ، ويصبح معنيا " بمراحل حياته ".

كما ان الجو السيكولوجي للبالغين قد يكون في حال تغير ايضا ، وذلك واضح مثلا في مواقف" جيلي انا " التي يمكن النظر اليها بوصفها مظاهر خاصة بالبالغين تتجلى فيها " مركزية الانا " التي كانت تقليديا تترافق مع الاطفال ، علاوة على ذلك ، تدل الدراسات على ان الاحساس بالمسؤولية الذي كان الكبار يشعرون به تقليديا باتجاه الاطفال يضمحل ويتضاءل ، فالاباء باتوا اقل رغبة في التضحية من اجل اطفالهم كما ان اعداد الاباء الذين يفكرون اويهتمون بمطامع اطفالهم ومستقبلهم في تناقص مستمر ، ان السيارات تحظى لدى الامريكيين اليوم بأهمية تفوق اهمية الاطفال بوصفها مظهرا من مظاهر " الحياة الرخية " واحدى النتائج التي نجمت عن فقدان المنظور الابوي التقليدي انما هي توفر مزيد من الديمقراطية في المنزل ، فهناك على مايبدو احساس اكبربالمساواة بين الاطفال ووالديهم ، اذ ان هؤلاء اليوم اكثر ميلا للوثوق باطفالهم والاسرار اليهم بمتاعبهم وعيوبهم ونقاط ضعفهم .

هذا التماثل في المكانة الاجتماعية للاجيال المختلفة يجد انعكاسه في التغيرات الطارئة على صور البالغين والاطفال في ميادين التسلية ، فشخصية شيرلي تيمبل في الماضي كانت مجرد طفل ذرب اللسان حاد الذكاء ، لكن نجوم السينما من اطفال اليوم ، مثل غاري غولمان ، غالبا ما يلعبون ادوار شخصيات راشدة وجدت نفسها سجينة اجساد اطفال مثلما فعل بروك شيلدز قبل فترة وجيزة من الزمن وكما يظهر في ادب الاطفال الان أطفال اشبه بالبالغين .

كذلك من العسير ، في عصر " البطل المضاد " ان تجد بالغين تقليديين في الافلام السينمائية والتلفزيونية ، اما شخصيات البالغين بما في ذلك كثير من تلك الشخصيات التي يصورها بيرت رينولدز ديان كيتون ، شيفي واليوت غولد — فغالبا ما تعيش نجاحات ومشاعر اطفال كبار ، اننا لا نجد في البرامج التلفزيونية والافلام السينمائية اليوم كبارا يبزهم الاطفال ويفوقونهم حيلة ودهاء وحسب بل نجد احيانا اطفالا يصورون على انهم اكثر نضجا وحساسية وذكاء ايضا .

كذلك فان المكانة القانونية النسبية للاطفال والبالغين قد تغيرت هي الاخرى تغيرا خطيرا ، ففي عام ١٩٧٦ مثلا ، منحت المحكمة العليا للاطفال حق الاستشارة معلنة " ان قانون الاصلاح الرابع عشر ووثيقة حقوق الانسان ليستا من حق الكبار وحدهم " الامر الذي ادى الى صدور قرارات فيما بعد منحت الاطفال الكثير من حقوق الراشدين القانونية .

ومع التزايد الحاد في عدد القاصرين الذين يفرون من منازلهم ويرفضون العودة غالبا ما تواجه المحاكم مسألة شائكة الا وهي الفصل بين حقوق الاطفال وحقوق والديهم علما بان ميزان السيطرة يميل باتجاه الاولين ، ففي اكثر من اثنتي عشر ولاية ، يسمح للمحاكم الان بأن " تحرر " القاصرين الى درجة يمكنهم معها ان يعملوا ويعيشوا بمعزل عن آبائهم وامهاتهم ، وكونكتيكوت ، مثلا تسمح للطفل الذي بلغ السادسة عشر ان " ينفصل " عن والديه وان يعامل معاملة الراشدين قانونيا ، اما في كاليفورنيا فان بالمستطاع ان ينال الطفل حريته في سن الرابعة عشرة .

كذلك فان المعنى القانوني لكلمة " طفل " اختلط اكثر بحقيقة ان الاطفال دون سن الخامسة عشر باتوا يرتكبون بصورة متزايدة جرائم " الكبار " كالسطو المسلح مثلا والاغتصاب والقتل ، ونتيجة لذلك ، فان كثيرا من الولايات تبتعد اكثر فاكثر عن معاملة الرفق الخاصة التي كان يعامل بها الاحداث ، مثال على ذلك ، في عام ١٩٧٨ ، سنت ولاية نيويورك قانونا يسمح بمحاكمة الاطفال ممن يرتكبون جرائم القتل وتزيد اعمارهم عن الثالثة عشر محاكمة الراشدين ، وفي عام ١٩٧٩ صادقت رابطة القانونيين الامريكيين على مجموعة جديدة من النظم الخاصة بمحاكم الاحداث ولاهتمامها اكثر " بخير ومصلحة " ، الطفل ، وهو المبرر الاصلي لوجود نظام محاكم الاحداث فقد اقترحت رابطة القانونيين الامريكيين انه ينبغي معاقبة الاطفال بما يتناسب مع خطورة جرائمهم .

اضافة الى ذلك فان مفاهيم المسؤولية القانونية لراشدين باتت في السنين الاخيرة غامضة بعض الشيء ، فالاستعمال المتزايد والطرح المتزايد لحجج " الجنون المؤقت " او " القدرات الناقصة " كعذر مبرر لارتكاب جريمة من الجرائم في لحظة غضب ، ما هو الامحاولة لاضفاء الصبغة الشرعية على نوبات المزاج المتقلبة لدى البالغين .

لكن حتى في الاماكن التي ما يزال فيها الموقع القانوني الرسمي للاطفال والبالغين دون مس ، فقد بات الاطفال يحظون بنوع جديد من الاحترام لدى المحاكم المؤسسات الطبية ، والهيئات الحكومية ، لقد امست المحاكم اليوم اكثر ميلا لان تأخذ بعين الاعتبار وجهة نظر الطفل في اماكن رعاية الاحداث ، وغالبا ما باتت تطلب موافقة الاطفال والمراهقين قبل مباشرة علاجهم طبيا او نفسانيا ، هذه المواقف الجديدة تنعكس في قرار مدينة نيويورك بتسمية ولدين بالتبني — احدهما في الثالثة عشرة والثاني في السادسة عشرة — كعضوين كاملي العضوية في هيئة محلفي المدينة الخاصة بتحسين شؤون الرعاية والتبني ، تحركات كهذه انما تمثل اتجاها بعيدا عن المعتقدات الابوية التقليدية القائلة بان الراشدين يعرفون دائما ما هو في مصلحة الطفل اكثر من الطفل نفسه .

بل لقديات ينظر الى الاطفال ، في بعض الدوائر ، على انهم " أقلية " ، اخرى لم تتحرر بعد ، وقد ظهرت حركة

لحقوق الاطفال وضعت نصب عينيها مساعدة الاطفال في نضالهم من اجل الحرية ، ورغم ان بعض الانتباه لحقوق الاطفال بات مؤخرا يركز على " الحق " في الا يموت الطفل جوعا والا يضرب (سعادة الاطفال) الا ان هناك مناصرين لحقوق الاطفال يضغطون من اجل مساهمة الاطفال في المجتمع مساهمة اجتماعية واقتصادية وسياسية كاملة (تحرير الاطفال) •لقد دافع ريتشارد فارسون ، بوصفه عضوا من اعضاء المعسكر الاخير ، دفاع المستميت عن " حقوق المولد " الاساسية الخاصة بالاطفال لكي يجابه ما يراه نوعا من العزل والاحتقار للاطفال وكذلك نوعا من التمييز العنصري المنهجي الذي يمارسه عليهم الراشدون ، وعلى نحو مماثل ، يوجز المربي جون هولت في مقالته " الهروب من الطفولة " " نوعا من ميثاق الحقوق " الخاص بالاطفال ، انه يقترح ان تتاح الحقوق والواجبات والامتيازات والمسؤوليات الخاصة بالراشدين لكل يافع يبتغي الاستفادة منها ايا كان وتتضمن " حقوق هولت " هذه حق العمل ، التنقل ، التصويت ، ان يكون للطفل خصوصياته ، ملكياته ، ان يوقع عقودا ،يختار اقرانه من الجنس الاخر ، ان يكون له بيته الخاص ، وان يختار الاوصياء عليه •

مثل هذه الاقتراحات الداعية الى " مساواة كاملة " بين الاطفال والبالغين قد تكون بعيدة عن امكانية التحقيق الا انها تعكس الاتجاه الراهن الذي يسود العلاقات القائمة بين الاطفال والبالغين فحركة انقاذ الطفل " التي قامت في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين انما كانت تهدف لان تلبي " الحاجات الخاصة " بالاطفال ولان تضمن لهم " حق الطفولة " — اي بمعنى من المعاني ، ان تفصلهم• اما الاتجاهات السائدة حاليا فتهدف الى تحقيق نوع جديد من التكامل بين حقوق وادوار كل من الاطفال والبالغين ، ومما لا ريب فيه انه ليس بامكان جميع البالغين والاطفال ان يتصرفوا على نحو متشابه ، بيدانه باتت هناك نقاط تشابه في السلوك والموقع الاجتماعي اكثر بكثير مما كان موجودا في السابق ، اي ان خطوط التقسيم التقليدية قد زالت •

على ان من الصعب كثيرا ان نقول ما اذا كانت هذه التغييرات لخير المجتمع ام لشره ، كما انه ليس من الواضح ما اذا كان " هروب الاطفال من الطفولة " ، ينبغي النظر اليه باعتباره تحررا ام انحرافا ام شيئا من هذا وشيئا من ذاك، لكن ، سواء كان خيرا ام شرا ، فانه لم يعدهنالك وجود لما كان معروفا في السابق باسم الطفولة وبلوغ تفصلهما خطوط مميزة محددة •

اسطورة حتمية — العمر

ان احد الاسباب التي جعلت من الصعب روية اندماج الطفولة بالبلوغ — وجعلت من الصعب ايضا تقبل ذلك حين رويته — هو وجود نماذج فكرية قليلة للغاية مسؤولة عنه• فالمرء قد يتوقع ان يجد انموذجا في علم النفس التطوري غير ان الابحاث والنظريات السائدة في هذا الميدان ركزت تركيزا بالغا على وصف قدرات الافراد في اعمارهم او مراحل تطورهم المختلفة ، مع ايلاء الاهتمام الاكبر لدراسة العوامل التي تساهم في احداث التغييرات المرتبطة بالسن او المرحلة او تترافق معها ، وعلى الرغم من انه تم التعرف الى عدد مختلف من الفوارق بين فئات السن المختلفة

وتمييزها ، وكذلك وصف الخصائص النموذجية للناس ضمن فئات — عمر معينة ، فان ما يعد عادة نوعا من المسلمات البديهية انما هو الوجود المسبق لمراحل الحياة المختلفة ، "كالطفولة " مثلا "والولدنة" و " المراهقة " و " البلوغ "و" الكهولة" ذلك ان ابحاث علم النفس التطوري لم توجه ، في معظمها ، باتجاه دراسة العوامل التي يمكنها تغيير الماهية الاجتماعية لمراحل العمر المختلفة•

فمكتشفات الدراسات التطورية تسجل عادة بمصطلحات المراحل التطورية الموازية لفترات عمر معينة ، ورغم ان هناك عددا من علماء النفس قاموا بشرح المضامين المحددة للمكتشفات المكتوب عنها بلغة الاعمار ، فان شروحهم نادرا، ما دخلت في الابحاث التطورية التي نشرت مختصرات عنها ، لذلك ، يظن كثير من الاباء والمعلمين وسواهم ان البحث التطوري يوضح ان العمر ذاته ،"يحدد " على نحو طبيعي سلوك الطفل والاسلوب المناسب للتعامل بين الاطفال والبالغين ولقد عززت فكرة السلوك الذي يحدده العمر وزداتها اتساعا المنشورات الشعبية والعلمية حول " دورات حياة " البالغين و " الفصول " والانتقال من حالة الى اخرى " فهذه الدراسات تصور مراحل كهذه بعبارات مثل " الانتقال الخاص بسن — الثلاثين — " و " محنة الاربعين " •

ان فكرة مراحل التطور ذات الارتباط بالسن تبدو بوجه عام وكأنهـا تقدم الدعم العلمي للفوارق التقليدية القائمة بيننا فيما يتعلق بالادوار ، الحقوق والمسؤوليات الخاصة بالناس الذين هم من اعمار مختلفة ، والواقع ان النموذج التطوري هذا ، كما اوضح البعض ، لايسمح حتى بوجهة النظر القائلة بأنه يمكن حدوث تغيرات كبيرة في الادوار ذات الارتباط بالعمر ، مع ذلك فان اولئك الذين يصرون على " طبيعة " مفاهيمنا التقليدية الخاصة بالطفولة والبلوغ يبنون معتقداتهم على منظور ثقافي وتاريخي بالغ الضيق ، ففهم الطفولة والبلوغ كان يختلف حسب اختلاف الثقافات كما ان ادوار الاطفال والبالغين كانت تتباين حتى ضمن الثقافة نفسها بين مرحلة تاريخية ومرحلة اخرى .

ان علينا لكي نرى ونلمس التغيرات الراهنة التي طرأت على الادوار المرتبطة بالسن ان نميز بين الوجود البيولوجي للاطفال والتركيب الاجتماعي " للطفولة " وكذلك ان نفرق بين حقيقة نضج البالغين والادوار الاجتماعية " للبلوغ " ، ان باستطاعتنا ان نرصد التطور الفيزيولوجي كما ان باستطاعتنا ان نختبر القدرات الادراكية لناس من اعمار مختلفة في ازمنة محددة ، لكن من الصعب كثيرا ان نكتشف حدود الفوارق الفردية في النمو الاجتماعي ، والمدى الذي تتراكب فيه العوامل الثقافية او تمحي الفوارق " الفعلية " او الدرجة التي يمكن فيها للاختلافات النفسية الملحوظة بين اناس من اعمار مختلفة ان تبت حكما بادوار اجتماعية بعينها ، ففي نواح كثيرة ، يمكن ان يكون الاطفال اطفالا دائما ، والبالغون بالغين دائما ، غير ان مفاهيم " الطفولة " و " البلوغ " متفاوت تفاوتا غير محدود .

لقد تعلمنا الكثير من ابحاثنا المتعلقة بالمراحل التطورية الشاملة ، بيد ان ابحاثا كهذه ما تزال ناقصة . ومن الواضح ان اي وصف " للثوابت" في تطور - الفرد البشري يميل نحو اغفال الكثير من العوامل التي تؤدي لاحداث تغير واسع النطاق في تعريف دور الطفل ودور البالغ في المجتمع ، بل حتى الفهم الكامل لسمات التطور الشاملة (ولاسباب اختلاف الافراد بعضهم عن البعض الاخر) لن ينبئنا بالضرورة عن اسباب التي دعت لاختلاف الدور المرتبط - بالسن من ثقافة الى ثقافة ومن مرحلة الى مرحلة ضمن الثقافة ذاتها ، ان علينا ، لكي نكتشف الصيرورة التي تمت خلالها التغيرات في مفاهيم الطفولة والبلوغ ، ان ننظر الى ماوراء تسلسل تطور الفرد وان نتفحص التغيرات الاجتماعية الاكبر التي تؤثر في سلوك الناس جميعا بغض النظر عن عمرهم او مرحلة نموهم فأخذ هذه المتغيرات انما هو " مادة المعرفة- الاجتماعية " .

التأهيل الاجتماعي كطريق للمعرفة :

ان احد العناصر المكونة للمكانة الاجتماعية انما هو امكانية الوصول الى المعرفة : فمن المألوف عادة انه تتوفر للناس الذين يشغلون المكانة الاجتماعية نفسها امكانية الوصول الى مواقع اجتماعية متماثلة والى معرفة اجتماعية متماثلة ، اما الناس الذين هم من مراتب اجتماعية مختلفة فتكون لديهم عادة امكانية وصول الى مواقع اجتماعية مختلفة والى معارف اجتماعية مختلفة - اذن ، التباين في الموقع الاجتماعي غالبا ما يدعمه انقسام الناس الى عوالم اجتماعية ومعرفية مختلفة : وهكذا يسعى مدراء المطاعم لابقاء زبائنهم بعيدا عن مطابخهم ، كما يحظر نادي الضباط على الافراد والرتباء في القوات المسلحة ، اما في المدارس فيمنع الطلاب عادة من اجتماعات الادارة ، واذا لم يتم الحفاظ على تميزات كهذه فان الفوارق القائمة بين المراتب الاجتماعية قد تبدأ بالامحاء هي الاخرى .

ان الانتقال من مرتبة اجتماعية الى مرتبة اخرى ، سواء كان هذا الانتقال من مرتبة الطفل الى مرتبة البالغ ، من طالب الطب الى طبيب ، ومن اي دور الى دور اخر - انما يتعلق بوجه عام بالحصول على حق الدخول الى الاماكن المترابطة مع المكانة الاجتماعية الجديدة وتعلم " اسرار " الناس الذين يؤدون ذلك الدور

لذا فان تطور الفرد ، والادوار الاجتماعية المرتبطة - بالسن لا تقوم اساسا على النمو المعرفي والفيزيولوجي وحسب بل ايضا على ما يمكن ان يدعى بـ " الانماط " المحددة لامكانية الوصول الى المعارف الاجتماعية "

فكل مرحلة من مراحل التأهيل الاجتماعي تشتمل على جانبين ، عرض المعارف الاجتماعية والحد منها ، مثال على ذلك نحن نعلم تلاميذ الصف السادس

اشياء لا نعلمها لتلاميذ الصف الخامس كما نمنع عن تلاميذ الصف السادس اشياء سنعلمهم اياها حين ينتقلون الى الصف السابع ، لذلك يمكن القول بان التأهيل الاجتماعي عملية عرض تدريجي او ممرحل للمعارف الاجتماعية ، اي يؤخذ بيد الاطفال ليصعدوا سلم معارف البالغين على مهل خطوة خطوة ، وقد يساعد نمو المعرفة الفردي لدى الطفل في عملية الصعود هذه لكنه ليس بالعامل الوحيد ، فكمية المعلومات المتاحة في كل مرحلة تؤثر تأثيرا كبيرا في المكانة الاجتماعية النسبية للطفل .

نستخلص من هذا التحليل انه اذا كان المجتمع قادرا على تقسيم ماينبغي ان يعرفه الناس بأعمارهم المختلفة الى مراحل صغيرة عديدة ، فانه قادر ايضا على ايجاد مراحل او مستويات عديدة للطفولة ، وعلى العكس ، اذا لم يكن لدى المجتمع تقسيمات حادة فيما يعرفه الناس ذوو الاعمار المختلفة ، فانه سيكون هناك مراحل للطفولة اقل عددا ، مثال على ذلك اذا ما عمدنا الى تعليم ابناء الصف الخامس والسادس والسابع في غرفة الصف ذاتها فانه سيكون من الصعب علينا ان نقسمهم تقسيما واضحا الى ثلاث مراتب اجتماعية مختلفة . فالتفاوت في الادوار الاجتماعية التي يقوم بها اناس من اعمار مختلفة ، ذلك التفاوت الذي يميز مختلف المراحل التاريخية والثقافات الفرعية والحضارات يمكن لهذا السبب ان يقوم جزئيا على الانماط المختلفة لمبدأ " من يعرف اي شيء عن اي شخص ، اننا من خلال فهمنا لعملية التأهيل الاجتماعي بوصفها عملية مرتبطة بـ " انماط الوصول الى المعرفة " يغدو بامكاننا تناول دراسة تأثيرات وسائل الاعلام من منظور جديد ، ورغم ان كثيرا من الدراسات تفحصت آثار "الرسالة التي تنقلها وسائل الاعلام ، على الناس في مراحل محددة من التأهيل الاجتماعي ، فان قلة قليلة من الدراسات عنيت بالكيفية التي يمكن للتغيرات الحاصلة في اجواء وسائل الاعلام ان تؤثر في بنية عملية التأهيل الاجتماعي ذاتها ، احدى

احدى الطرق للقيام بذلك هي ان نتأمل ما وراء الرسالة المحددة التي تنقلها وسائل الاعلام وان نتفحص كيف يمكن لوسائل الاعلام المختلفة ان تخلق " جغرافيات موقعية " مختلفة بالنسبة الى عالم الطفولة وعالم البلوغ .

انني ، بتركيزي فيما يلي على الاثار المحتملة لانتقالنا من " ثقافة الكتاب ومواقعه " الى " ثقافة التلفزيون ومواقعه " لا أهدف قط الى الغاء التفسيرات الاخرى التي قدمت بغية شرح التغيرات الحديثة في التأهيل الاجتماعي او شطب العوامل الكثيرة التي تعمل للحفاظ على الفروق التقليدية القائمة بين الطفولة والبلوغ .

فمن المؤكد ان عدم الاستقرار المتزايد في العلاقات الزوجية والقضايا الاقتصادية وفي متغيرات كثيرة اخرى تساهم في احدى التغيرات الحديثة ، وعلى العكس ، فان التقاليد العائلية ، والمعتقدات الدينية والتعليم المدرسي والطبقة الاجتماعية ومكان السكن تخفف كثيرا من الضغوط الموجهة نحو دمج الادوار المرتبطة بالسن ، وكل ما آمله هنا هو ان اوضح انه قد يكون للتغيرات في وسائل الاعلام شأن بالاتجاهات الشاملة لمفاهيم الطفولة والبلوغ اكثر بكثير مما يظن الناس عموما .

لنفترض ان موضوع البقية الباقية من هذه المقالة ليس هو التغير في التأهيل الاجتماعي والكثير من اسبابه المحتملة بل هو التغير في وسائل الاعلام وكثير من الطرق التي يمكن بها لتغير كهذا ان يؤثر في الادوار المرتبطة - بالسن ، فالتحليل هنا ينبغي ان يفسر بالطريقة ذاتها كما يمكن ان تفسر المكتشفات التي يتم التوصل اليها في تجربة تجري حول تأثيرات مادة كيماوية معروفة تضاف الى ماء الشرب ، فقد يتبين ان هذه المادة الكيماوية تزيد من سرعة نبض القلب ومن الاستقلاب في الجسم ، مثلا ، لكن حقيقة كهذه لا تعني انه ليس هناك عناصر او متغيرات اخرى قد تكون ذات آثار مماثلة ، كما لا تعني انه ليس هناك عقاقير اخرى او اطعمة او عادات عائلية يمكنها ان تخفف من آثار هذه المادة الكيماوية او تبطلها ، ان المبرر الذي ينبغي استخدامه للدفاع عن حلقة ارتباط النتيجة - بالسبب في كافة المكتشفات الناجمة عن التجارب انما هو الافتراض فان " جميع الاشياء الاخرى ثابتة " فالباحث الذي يستخدم طريقة تحليلية ما عليه غالبا ان يستخدم وسيلة انكار مماثلة حينما يدرس التأثيرات المحتملة لتغير بعينه .وفيما يلي سأحاول ان أشير الى " اتجاه " التأثيرات التلفزيونية على الادوار المرتبطة - بالسن على فرض ان الاشياء

الاخرى كلها ثابتة .

في عالم التلفزيون انت في بيتك

في الماضي ، كان ما يعرفه عن العالم الطفل الصغير الذي لم يذهب الى المدرسة بعد ، انما يحدده بصورة اساسية المكان الذي يعيش فيه والذي يسمح له بالذهاب اليه فتجربة الطفل غالبا ماكان يحددها اطار المنزل والمنطقة المحيطة به ، لكن مع تعلم الطفل القراءة والكتابة وانطلاقه في ميدانهما ومع اتساع المنطقة التي بات يسمح له فيها بالتنقل والتجوال فقد توفرت للطفل امكانية الوصول الى المجتمع الاكبر - فالقراءة وفرت امكانية الوصول الى المعارف ، والتجوال امكانية الوصول المادية الى العالم .

في الماضي كان يصور بيت الاسرة على انه محيط المرء الذي يوفر له الغذاء والحماية لكن في المجتمعات المدينية الحديثة ، بات لبيت العائلة دور اخر هو العمل كمحيط تقييد شديد اي انه يحد من تجارب الاطفال .

لقد هاجمت شارلوت باركنيز غليمان وهي من اوائل الكاتبات النسائيات البيت بوصفه سجنا يقف حائلا بين الاطفال والنساء من جهة وبين العالم الخارجي من جهة اخرى بل حتى اولئك الذين يناصرون الدور التقليدي للبيت يعترفون ضمنيا بجانبه التقييدي هذا ، فقد كتب اوسكار ريتشي ومارفين كولار في " سوسيولوجيا الطفولة ان البيت هو " العالم الصغير " للطفل، وان " العائلة تعمل على عمل المنخل تجاه ثقافة مجتمعها اذ لا تسمح الا لتلك الاجزاء التي تقدر انها تستحق الاهتمام بالمرور الى الطفل " ، بيد ان الطفل ، بالطبع ، ليس معزولا تماما عن المعلومات المتعلقة بالعالم الخارجي ، رغم ان هذه المعلومات ترشح عموما عبر الوالدين والبالغين الاخرين الذين يسمح لهم بمغادرة بيوتهم على هواهم ، وبسبب التقييدات الشديدة المفروضة على تجريب الطفل للواقع الاجتماعي ، فان ريتشي وكولر يلاحظان ان الزوار القادمين من العالم الخارجي غالبا ما يصبحون مركز اهتمام لمن هم في الداخل ومصدر سحر لهم ، فالضيف ، باعتباره شخصا يعيش خارج البيت ، يقوم بدور الناقل ، ذلك الذي يجلب الى عالم الطفل افكار ومعلومات جديدة وكذلك فرصا مختلفة وجديدة من اجل مساهمة الطفل قبل الاوان في العالم الخارجي .

واستعارة كلمة " الناقل " هنا امر ذو دلالة واهمية فهي تكشف نقطة ضعف في وصف ريتشي وكولر لدور العائلة والبيت في عملية التأهيل الاجتماعي ، لقد كتبا ذلك عام ١٩٦٤ وكان عليهما ان يدركا ان جو البيت الذي يصفانه ، فيمايزيد عن ٩٠ بالمائة من البيوت الامريكية في ذلك الحين ، لم يعد مقيدا بعد ، نظرا لانه كما قد تغير قبل ذلك ، وكان قد غيره ذلك الناقل الجديد الجبار - التلفزيون لقد لاحظا انه " والى حد كبير بسبب سيطرة الوالدين على الموقف ، فان العلاقة بين الطفل والضيف يحتمل ان تكون جانبا ايجابيا من جوانب التأهيل الاجتماعي مع ذلك فان الضيف العائلة التقليدي ، يدعى من قبل العائلة ويبقى تحت اشرافها وكذلك يعمل كراشح بالغ ترشح من خلاله المعلومات للطفل ، في حين ان الضيوف الذين يأتون عبر التلفزيون غالبا ما يكونون زوارا غير مدعوين يعملون على توسيع مدارك الطفل ، ومعلوماته دون اذن الوالدين اواشرافهما

ان تأثير التلفزيون على اعادة تعريف " البيت " يكاد يضيع تقريبا في الطريقة السائدة التي يتم بها تناول التلفزيون ودراسته ، طريقة الرسالة - الموجهة ، ذلك ان التركيز على المحتوى بدلا من البنية الموقعية حجب الطرق التي يمكن بها للتلفزيون ان يتجاوز رواشح سلطة البالغين وينقص من دلالة العزلة المادية التي يعيشها الطفل في منزله .

انه ، بمعنى من المعاني ، يعتبر الفارق قليلا فيما اذا كانت برامج الاطفال تعزز الرسالة التي يعرفها البالغون على افضل نحو دائما ، او الرسالة التي لا يعرفها البالغون على افضل نحو دائما ، او ما اذا كان اعلان تجاري يقول للاطفال ان يشتروا منتجا من المنتجات بأنفسهم ام يطلبوا من والديهم القيام بذلك، نظرا لان نمط المعلومات المتسربة الى البيت عبر التلفزيون قد تغير ، بغض النظر عما يتم ارساله بصورة محددة في البرامج والاعلانات ، ففي حين ان الاطفال كانوا يتلقون عمليا جميع معلوماتهم المتعلقة بالعالم الخارجي من والديهم ، فان التلفزيون يخاطبهم اليوم مباشرة ، الامر الذي نجم عنه ان علاقات السلطة ضمن الاسرة باتت جزئيا موضع اعادة نظر وترتيب جديد فالارسال التلفزيوني ذو تأثير هام - ومرة ثانية ، اقول ، بغض النظر عن مضمون الارسال بالذات ، نظرا لانه ينقل الاطفال الى ما

وراء الحدود المعلوماتية التي كانت تقيمها في الماضي جدران البيت واوامر الوالدين .

مما لا ريب فيه ان الاباءوالامهات اليوم ما يزالون يتحكمون بكثير من العناصر الجو المنزلي العائلي ، لكن في حين ان الحياة المنزليةكانت ذات يوم هي الاساس الذي تقوم عليه تجارب الطفل كلها ، فان الاطفال الذين تتوفر لديهم اجهزة تلفزيون اليوم باتوا يمتلكون منظورات خارجية يمكنهم اطلاقها منها ان يحكموا على شعائر العائلة ،

معتقداتها ، ممارساتها الدينية وان يقوموها ، وفي حين كان باستطاعة الوالدين في الماضي ان يصوغا بسهولة اطفالهما وينشئاهم كما يشاءان من خلال محادثتهم والقراءة لهم عن الاشياء التي يرغبون ان يتعرض اطفالهم لها وحسب ، فان على الوالدين اليوم ان يكافحوا ضد الاف الصور والافكار المنافسة التي لا يملكون عليها من السيطرة المباشرة الا القليل ، مع ذلك ، ما يزال بالامكان روية تأثير الوالدين والحياة العائلية فالاطفال ما يزالون يختلفون اختلافا ملحوظا باختلاف طبقتهم ، دينهم ، .. وخلفيتهم العرقية ، بيد ان العائلةلم تعد صاحبة التأثير التشكيلي الكلي - القوة .

في السابق كانت معلومات الاطفال الصغار تحددها المصادر القليلة المتاحة لهم ضمن البيت او في محيطه ، الرسوم ، اللوحات ، النظرات عبر النافذة ، وما يقوله الكبار لهم ويقرؤونه ، اما اليوم فان التلفزيون ينقلهم عبر العالم حتى قبل ان يأخذوا الاذن بعبور الشارع ، ان احد الاسباب التي تجعل كثيرا من الاطفال يبدون وكأنهم لا " يعرفون مكانهم " بعد هو انه لم يعد لهم مكان ، بمعنى المحيط المعزول الذي يحد كثيرا من امكانية وصولهم الى مواقع البالغين واسرارهم .

" تلفزيون الاطفال " - ليس ثمة شيءكهذا

ان الوصول الى التلفزيون والوصول الى الكتاب امران مختلفان كل الاختلاف . فالكتابة والقراءة تتعلقان بمجموعة مجردة من الرموز الاعتباطية عديمةالمعنى على الصعيد الدلالي ، ولكي نقرأ ونكتب بصورة كفوة ، ينبغي حفظ هذه الرموز في الذاكرة وممارستها وتذويتها (اضفاء الصيغة الذاتية عليها) غير ان تعقيدات رموز الطباعة تحرم الاطفال الصغار فعليا من وسائل الايصال المستخدمة في الطباعة جميعها ، بمعنى ان الطباعة تخلق "امكنة يمكن للراشدين ان يتوصلوا منها بعضهم مع البعض الاخر دون ان يسمعهم الاطفال، فمنخلال الكتب يمكن للراشدينان يناقشوا فيما بينهم اشياء قد يرغبون في ابقائها خافية على الاطفال الصغار ، علاوة على ذلك ، ونظرا لان القراءة تتعلق بمهارة معقدة تكتسب على مراحل ، فان باستطاعة البالغين ان يتحكموا بالمعلومات التي تعطي الى الاطفال ذوي الاعمار المختلفة عن طريق تنويع التعقيد الذي تتصف به الرموز التي تكتب بها الكتب المتعلقة بموضوعات مختلفة ونظرا لانه ينبغي على الاطفال ان يقرؤوا كتب الاطفال المبسطة قبل ان يقرؤوا كتب البالغين المعقدة ، فان الطباعة تتيح امكانية فصل الناس ذوي الاعمار المختلفة الى عوالممعرفية مختلفة .

كذلك فان اختلاف تعقيد الرموز المستخدمة في الطباعة لا يفيد في عزل الاطفال عن مواقع البالغين وحسب ، بل يعمل ايضا على عزل البالغين عن مواقع الاطفال ، مثال على ذلك ، يمكن ان يحجب الاطفال عن الموضوعات الخاصة ، بالبالغين " كالجنس مثلا ، الجريمة ، الموت ، وذلك ببساطة من خلال ترميز هذه المعلومات بكلمات طويلة صعبة وجمل مكتوبة كتابة معقدة ، وفي الوقت ذاته ، يمكن محتوى معظم كتب الاطفال بسيطا الى درجة يجدها البالغون غير مثيرة للاهتمام وقد يزعجهم ان يشاهدهم احد وهم يقرؤونها (والواقع ان ايجاد مادةمناسبة لاستخدامها في تعليم الكبار الاميين القراءة والكتابة يعد احدى المسائل الشائكة الهامة) فالاطفال عادة لا يعرفون ما يقرأه البالغون ، كما ان البالغين (مالميكونوا معلمي مدارس أو آباء وامهات يقرؤون الكتب لاطفالهم بصوت عال لا يعرفون عادة ما يقرأه الاطفال ، ان المجتمع بوجود الطباعة يميل للانقسام الى منظومات معرفية مختلفة عديدة تقوم بالاساس على التفاوت في ميدان التمكن من مهارات القراءة والكتابة .

اذن ، كتب الاطفال ، كتب خاصة وذلك لسببين هامين : الاول انها تشكل النمط الوحيد من الكتب الذي يستطيع الكثير من الاطفال قراءته والذي لايقروه بصورة عامة الا الاطفال وحدهم ، وبهذا المعنى فان ادب الاطفال هو نوع من " الجيتو "(١) المعلوماتي المنعزل

والعازل على حد سواء .

لكن ليس هنالك مكافيء موضعي لكتاب الاطفال في التلفزيون فالتلفزيون ليست لديه شيفرة ايصال مقعدة تبعد المشاهدين الصغار خارج دائرتها اوتقسم جمهورها الى فئات عمر مختلفة ، صحيح انه يمكن لبرامج البالغين ان تتضمن معلومات لا يستوعبها الصغار كل الاستيعاب وان تتضمن برامج الصغار مضامين طفولية لا تثير اهتمام الكبار لكن الصحيح ايضا ان الرموز الاساسية التي تقدم بواسطتها جميع البرامج هي رموز متماثلة بالنسبة الى كل عرض تلفزيوني ، انها الصورة والصوت ، وخلافا للكتاب ، فان الصيغة الرمزية للتلفزيون تماثل الاشياء التي تقدمها ، فصور التلفزيون - شأنها شأن كل الصور ، تماثل الاشياء الحقيقية والناس الحقيقيين كما ان التلفزيون يخاطب الناس بلغتهم واصواتهم ذاتها ، ورغم ان الاطفال الذين هم دون الحادية او الثانية عشرة قد لا يفهمون التلفزيون بالمعنى الذي يفهمه الكبار تماما ، الا انهم يجدون باستمرار ان التلفزيون يستغرقهم كل الاستغراق وانه في الوقت ذاته وسيلة سهلة المنال ، ان الاطفال الذين يتراوح سنهم ما بين الثانية والخامسة لا ينفقون الا القليل من الوقت في التحديق الى الكلمات والجمل في كتاب من الكتب ، الا انهم خلال السنوات القليلة الاخيرة باتوا يقضون مايتراوح بين خمس وعشرين واثنين وثلاثين ساعة كل اسبوع في مشاهدة التلفزيون .

ذلك ان البرامج التلفزيونية ، بالمقارنة مع الكتب ، لا تتطلب الاالقليل من " الشروط المسبقة " او لا تتطلب شيئا منها على الاطلاق ، اذ ليس هناك نظام محدد يتعين رؤية البرامج طبقا له نظرا لان معظم البرامج تتطلب الدرجة نفسها من المهارة (او الحاجة نفسها للمهارة) . فالمرء ليس مضطرا لان يشاهد " غرفة رومبر " قبل مشاهدته " شارع سمسم " وليس على المرء ان يشاهد برنامج " الموبيتز " قبل مشاهدة " دالاس " بالنسبة الى التلفزيون ، ليس ثمة مصفاة اعلامية تحجب الاطفال عن تعرضهم لبرامج البالغين وليس ثمة اسلوب بصري تبسيطي يصيب الكبار بالسأم حين يشاهدون برامج الصغار - اذن ، ليس بالامر المدهش ان يميل الناس من جميع الاعمار لان يشاهدوا قسما كبيرا من البرامج ذاتها ، وفي السنين الاخيرة كان مسلسل " دالاس " و " سفينة الحب " و " الموبيتز " من بين اكثر البرامج شيوعا بين فئات الاعمار في البلاد جميعها ، وفي حين ان من الممكن عزل عالم كتب الاطفال الى درجة لا يقدم فيها للاطفال الا النظرة المثالية للحياة ، فان اخبار التلفزيون وبرامج التسلية فيه تقدم للاطفال الصغار ما هب ودب من الصور التي تمثل كبارا يكذبون ويسكرون ، يخدعون ويقتلون .

اذن ، الامر غير العادي بالنسبة الى التلفزيون ليس في انه يقدم للاطفال عقول الكبار بل في انه يسمح للطفل الصغير بان " يحضر تعاملات الكبار " ان التلفزيون يزيل الحواجز التي كانت في السابق تقسم الناس ذوي الاعمال المختلفة وقدرات القراءة المختلفة الى مواقع اجتماعية مختلفة .

من هنا فان الاستخدام الواسع النطاق للتلفزيون يعد مرادفا لقرار اجتماعي شامل يسمح للاطفال الصغار بأن " يحضروا " الحروب والجنائز ، المغازلات والاغواءات ، المكائد والدسائس وكذلك حفلات الكوكتيل ، صحيح ان الاطفال الصغار قد لا يستوعبون تماما قضايا الجنس ، الموت ، الجريمة والمال التي تقدم لهم في التلفزيون ، او لنقل بعبارة اخرى انهم قد يستوعبونها بأساليب طفولية فقط لكن الصحيح ايضا ان التلفزيون يعرض على الاطفال موضوعات وجوانب سلوكية كثيرة كان البالغون يحرصون كل الحرص ويبذلون جهدهم طوال قرون عديدة ، لان يخفوها عنهم ، ان التلفزيون يدفع بالاطفال قدما الى عالم الكبار المعقد ويوفر لهم الدافع والحافز لان يسألوا عن معاني اقوال وافعال ما كانوا ليسمعوا بها او يقرؤوا عنها لولا التلفزيون ..

ليس معظم الاطفال قادرين على مشاهدة برامج الكبار وحسب بل انهم منذ مطلع عهد التلفزيون ذاته ، يفضلون هذه البرامج ، فكما تقول احدى الدراسات الحديثة ، ليس باستطاعة حتى افضل برامج الاطفال المتوفرة ان تنافس برامج الكبار في اثارة اهتمام الطفل ، مع ذلك ما يزال الكثير من الاباء والامهات ،وبكل سذاجة ، يطالبون بزيارة " برامج الاطفال " في التلفزيون او يتطلعون الى بزيادة " البرامج المتخصصة حسب الاعمار " او يوجهون الاذاعات التي تدور في الفلك المنزلي واشرطة الفيديو ، غير ان من الصعب اقامة نظام معلومات منفصل ، مرادف لعالم

كتب الاطفال المعزول بمجرد ايجاد برامج تلفزيونية ذات مضامين يعتقد تقليديا انها مناسبة للاطفال ،وليس من الممكن ان يكون ، فليس هناك ، في الحقيقة تلفزيون اطفال يختلف عن تلفزيون الكبار ، بل هناك " تلفزيون " فقط .

مدخل التلفزيون :

تقوم كثير من الخصائص المادية للكتب بالعمل كراشحات للمعلومات التي يمكن اتاحتها للاطفال ، فكل كتاب هو موضوع متميز يتعين على الطفل ان يطلع عليه بصورة افرادية ، واذا لم يعط احد الوالدين الكتاب للطفل ان يغادر المنزل ويستعيره او يشتريه من احد الكبار عادة ، كذلك فان بطاقات المكتبات الخاصة التي تعطى للاطفال تحول بينهم وبين استعارة كتب الكبار ، وهذه الكتب غالبا ما توضع في رفوف ابعد من متناول الطفل ، زد على ذلك ان الاطفال لا يملكون الا القليل من المعرفة بما هو متوفر من الكتب او بمكان الحصول عليها .

من هنا يمكن اختيار الكتب على نحو انتقائي وافرادي واعطاؤها للاطفال على نحو انتقائي وافرادي ايضا ، غير ان التحكم بمحتويات التلفزيون امر اصعب بكثير . إذ ما ان تتوفر للطفل امكانية الوصول الى جهاز التلفزيون ، حتى تتسنى له امكانية الوصول المباشرة الى كل ما يأتي عبره ، فالطفل لا يتعين عليه ان يقصد مكانا خاصا كي يشاهد برنامجا تلفزيونيا كما انه ليس مضطرا حكما لان يطلب الاذن بروًيته من احد الكبار ، وفي حين ان الرموز المستخدمة في القراءة والخصائص المادية للكتاب تفرض نوعا من " القيود " الالية التي تقتضي حدا ادنى من تدخل الوالدين، فان المراقبة الفعلية لمشاهدة الاطفال للتلفزيون والحد منها قد يتطلب اشرافا فعليا ومستمرا ، لذا فان القرار الهام فيما يتعلق بالتلفزيون ، هو ان تشتري جهاز تلفزيون ام لا ، ان تتيح للاطفال فرصة تعرضهم لجميع العروض التلفزيونية او لا شيء منها على الاطلاق .

علاوة على ذلك ، ونظرا لان الطفل ليس هو الذي جاء ببرنامج من البرامج الى البيت ، فان القليل من الاثم يقع عليه نتيجة مشاهدته لمثل هذا البرنامج ان شراء " كتاب قذر " او رواية مبتذلة وادخالها الى البيت امر يعني دمغ الطفل بمحتواها ، اما ان يشاهد عرضا تلفزيونيا كهذا فانه لا يعني الا انه يشاهد هو القاعد في بيته ، وبكل براءة ما ينقل اليه ، (وهو ما ينبغي ان يكون ، حسب منظور الطفل ، قد حظي بالموافقة من الوالدين اللذين يقدمان له جهاز التلفزيون ، ومن المجتمع الاكبر الذي يقدم ذاته عبر واسطة الاعلام هذه)

ان كتاب الطفل اشبه بضيف في المنزل ، فهو يدخل بصورة اجتماعية ، اي انه يدخل من الباب ويظل فيه بأمر الوالدين الاسمي على الاقل ، وهو ، كشيء مادي ، يجب ان يحفظ في مكان ما في المنزل ، سواء كان ذلك المكان طاولة القهوة او تحت الفراش - ومن الممكن ان يلقى به خارجا ، اما جهاز التلفزيون الطفل فانه ، بالمقارنة ، اشبه بمدخل جديد الى البيت ، اذ يأتي عبره كثير من الزوار المرغوب فيهم وغير المرغوب فيهم : معلمون ، رؤساء جمهوريات ، باعة ضباط شرطة ، مومسات ، قتلة ، اصدقاء .

لذلك ثمة مأزقان خطيران على الاقل يواجهان الوالدين اللذين يتنطحان للمهمة الهائلة ، مهمة مراقبة البرامج التلفزيونية التي يشاهدها اطفالهما ، اولهما هو ان التحكم بمشاهدة التلفزيون ذو علاقة وثيقة بصراع قيم : حماية الاطفال مقابل السماح لهم باكتساب اكبر قدر ممكن من المعارف ، ففي السابق كان يتعين على الاباء تشجيع ابنائهم على القراءة والتعلم ، كما ان قدرا كبيرا من الحماية ، التي توفر لهم ، من معارف الكبار الموجودة في الكتب إنما كان يعنى به ، وبصورة آلية ، ما تتصف به الطباعة من سمات متأصلة فيها ، اما الان فان الاباء يجدون انفسهم في وضع مزعج ، وضع التدخل الفعلي في عملية تعلم أبنائهم ، اذ على الاباء الان ان يحاولوا تقويم محتوى البرنامج التلفزيوني واتخاذ قرار - سريع في الغالب - فيما اذا كان باستطاعة اطفالهم ان يشاهدوه ام لا .

المأزق الثاني هو ان تحكم الاباء بما يشاهده ابناؤهم من برامج تلفزيونية كثيرا ما يعنى الحد مما يشاهدونه هم انفسهم ، وفي حين ان الطفل قد لا تتوفر لديه عمليا امكانية الوصول الى الكتب التي يقرأها الكبار في الغرفة ذاتها ، فان البرنامج التلفزيوني الذي يشاهده الكبار في الغرفة التي يوجد فيها الطفل يكون في متناول الطفل نفسه ايضا .

وكثيرا من الاطفال يكونون عرضة لسماع اخبار الكبار ، مثلا ، بنظرا لان اباءهم يشاهدون نشرة الاخبار خلال تناولهم العشاء لذا ، يتعين على الاباء بغية التحكم بما يشاهده اطفالهم من برامج تلفزيونية ، اما ان يحددوا من مشاهداتهم هم او ان يقسموا الاسرة تقسيما ماديا غير ان الموقف يكون اشد تعقيدا حين يوجد في البيت عدة اطفال من اعمار مختلفة .

ان الخصائص الفريدة للكتاب تتيح امكانية تعزيز القاعدة الضمنية القائلة " اقرأ ما نريد نحن ان تقرأ لا ما نقرأ نحن " اما عروض التلفزيون فانها لاتدعم قاعدة كهذه الا قليلا ، ففي القراءة ، يمكن للاسرة ان تتواجد كلها معا ضمن غرفة واحدة ومع ذلك تكون منقسمة الى عوالم مختلفة من المعارف - اما في البيوت التي يتوفر لها اكثر من جهاز تلفزيوني فان بامكان الاطفال والبالغين ان يكونوا في غرف منفصلة ومع ذلك تجمعهم ساحة معارف واحدة .

عرض " سر الاسرار "

ثمة كتب كثيرة خاصة بالاباء تبحث في الكتب المناسبة للاطفال والكتب غير المناسبة ، وهذا بالاساس ميدان تعامل راشد - مع - راشد محظر على الاطفال الصغار ، والحقيقة ان معظم الاطفال الصغار ، يجهلون وجود مثل تلك الكتب حتى ، وهكذا بمساعدة مثل هذه " الابحاث" الخاصة بالبالغين كان الصغار في السابق يحجبون عن موضوعات معينة مثل الجنس ، المال ، الموت ، الجريمة ، المخدرات ، وبالتالي يحجبون عن الحقيقة ذاتها في انهم موضع حماية ، اي ان الطباعة كانت تسمح بـ "تآمر الكبار"

بيد ان هذا لا ينسحب على التلفزيون صحيح ان التلفزيون غالبا ما يقدم النصيحة للوالدين وان الندوات تناقش مسائل تلفزيون الاطفال ، والتحذيرات توضع في بداية البرامج بحيث تسمح للوالدين بمعرفة ان البرنامج قديتضمن مادة " غير مناسبة " لاطفال ما قبل المراهقة .

*

حاطمة الكأس

غفت ورقات الحور والنهر انتشي	وكنا عليه عصبة حول منشد
تخالسني احدى الملاح لحاظها	ويشغلني عنها هتاف المجود
وتشغلني كأس اذا ما رشفتها	تبش فتلهيني عن الامس والغد
فلم يرق الحسناء امري فخطمت	بقبضتها كأسي بسخط المعربد
ومدت الي الكف ينزف جرحها	على ما تشظى من حطام مبدد
وقالت تجاهل يا شقيّ صبابتي	وما شئت امعن في الجهالة وازدد
فمن لا يرى في مقلتي ما بمهجتي	حملت اليها جرح قلبي على يدي

زحله — شفيق معلوف

حدث ذات يوم

أسامة الخولي

(١)

● حشود هائلة كانت تملأ الميدان حركة ونشاطا وحيوية دفاقة . رأيتك ، من جديد ، شابا قويا عنيدا مصرا حقيقيا . لم أتمالك نفسي ، ـ هتفت صارخا باسمك في اعماقي ، ثم اندفعت بكل قوة جاهرا بأنك هنا . . . . . . ، هنا . عندئذ توقفوا . التفتوا جميعا ، ورأوك . صرنا الفا ، ثم ألفين ، ثم . . . . ، ثم لم أستطع أن أحصى هذه الحشود من خلفنا ـ والتي كانت تهتف باسمك لأنك هـا هنا ، سـافرا . . من جـديد . صفقت لنـا . ضموك وضموني . رفعوك ورفعوني فوق الأعناق ـ معا غنينا للبعث الشامل .

● لمحك من خلف نظارته السوداء . طوى جريدته ، وأطفأ السيجارة ، . . . . ثم سار خلفنا . مستغلا هذا الحشد الغفير ، المتحمس ، استطاع ان يأخذك على غرة ـ شدك بعنف . ألقى بي أرضا وهو ينظر الى شزرا . أخذت أحملق فيكما مشدوها من المفاجأة ، منكمشا من العجز ، متشبثا بنفيري الذي اشتريته هذا الصباح .

ـ أين ذهب ؟!

مشحونا بالألم والمرارة والسخط أجبتهم :

ـ أخذوه عنوة وخداعا .

ـ لكن . . . . ؟!

● هتفنا باسمك من جديد ، في قوة والحاح وايمان واستماتة . كنا زيتا وشرارة ، طوفانا يكتسح الزمن الموبوء ـ وتشكل في الأفق إله إرادتنا . لكن جنود « « إبرهة وهولاكو » ، البرابرة المتوحشين ، عصفوا بالميدان ممتطين أفيلة « ضخمة وسيارات مجهزة بأفظع أساليب البطش والفتك والبلبلة والتشويه ـ مما ليس لنا به عهد ـ وكان الخراب .. وسرعان ما طوى السكون والتوتر أرجاء المدينة ، . . ونامت « دنشواى » على نغيمات ـ كنت أبعثها من نفيري ـ نغيمات مضطربة . . ، قلقة . . ، بلا معالم واضحة : سوى الأسى المرير . وكان الليل طويلا ، طـويلا ، طويلا .

(2)

ـ آخر الحانك ؟!

ـ لحن فشلت في الامساك بأول خيط من خيوطه المتشابكة . لحن يتردد في وجداننا بلا انقطاع

ـ وجداننا ..... ؟!

ـ ....

ـ هم مممم ....

(3)

● على أرض المعبد الرخامية شعرت بالرهبة حقا ـ رغم أنني لا أدين بديانتكم هذه . استمعت للراهب الأكبر ، الذي أخذ يدلي بحديثه الصحفي في معبدكم الموقر . شعرت بغصة في حلقي ، عندما وجدتكم مازلتم تعيشون من ـ وعلى كتابة التعاويذ واحراق البخور . وعندما وجدت اقدامي خارج المعبد تنفست الصعداء ، ثم أطلقت ساقي للريح ـ كنت اعدو بكل ما أوتيت من جهد ، حتى وصلت الى مكان بلا رقيب . أخرجت اوراق التحقيق ، ثم أشعلت فيها النيران . كنت اراقب احتراق الأوراق في مزيج من النشوة والراحة النفسية العميقة ـ التي كان يحد منها ايمان بأنه من المفروض أن تبادوا أنتم قبل هذه الأوراق .

(4)

قالت : ـ لم تعد تحبني ؟ !

لم أقل : ـ سئمت التملك هذا الذي يحتويني

قالت : ـ لماذا نحن غريبان ؟!

لم أقل : نحن في أزمنة القحط والفقدان .

قالت : ـ لماذا تعقد الأمور ؟!

قلت : ـ لأنك ما زلت بلا تغيير يذكر ـ سوى أنك صرت مملة في صمتك ، كئيبة في حديثك ، جامدة في شعورك أكثر مما كنت عليه من قبل . وكان علي دائما أن أقف بجوارك ، وأن أخفف عنك ، وأن أبدو أمامك دائما كالعاشق الولهان ـ ولو متملقا أحيانا . صقيع . صقيع يخمد في التوهج . لو ظل حبك هذا يرغمني على أن أحيا بلا معنى وبلا نتيجة هكذا ـ سأقول لك : « وداعا » ، يوما ما .

ـ كفى . كفى !! حديثك يقتل كل حي في كياني .

ـ وأنا ؟! .. ألم يقتل كيانك كل حي في حديثي ؟!.

ـ .... !!

● بعد قليل تخفت الأضواء ، ويلهث الحديث بيننا ـ حتى يصبح أنفاسا متلاحقة متقطعة ، وألفاظا تنقلت منا بدون إرادة ، مصحوبة بزفرات متشنجة وتأوهات محمومة ـ هذا ما يحدث بيني وبينها ، دائما ، عندما ننفرد محاولين الجدل ، فلا نجد مناصا من العودة الى حتمية العلاقة الشهوانية ، البحتة ، ما بين أبي آدم وأبي حواء .

(5)

ـ أين أوراق التحقيق ؟!

قلت : أحرقتها .

ـ لماذا ؟!
ـ لأنني كنت واثقا مما تحتويه من تزييف هائل .
ـ وما شأنك أنت ؟!
ـ شأني ؟! شأني أنني كنت المسجل والحامل لهذه الأوراق اللعينة . مجرد حملي اياها كان يقتلني . تخلصت من هذه الملوثات فحسب .
ـ وهكذا نطقت بالحكم على نفسك ، أتعرف الجزاء ؟!
ـ . . . .
ـ الفصل النهائي من الجريدة .
ـ النهائي ؟! لقد تعبت من النفاق في الجدل والنقاش ، والارهاب عند الأخذ والعطاء . افصلوني لوجه الله أرجوكم .
ـ وقح . إخرج ،
● أخيرا ـ حرا طليقا طليقا بلا قيود . . . . !! « القيود » ؟! « طليقا » . . ؟! . . .
● وصلت الى حيث أحرقت الأوراق ـ هذا الحريق المقدس الذي عمد وبارك حريتي ، . . . . حريتي ؟! ـ لم أجد أثرا لبقاياها ، لقد تطايرت وتناثرت . كان يجب أن أدفنها في التراب حتى لا تتطاير وتدنس كل بقعة تحط عليها او تمر بها . الشيء الذي طمأنني ، قليلا ، أن بقايا هذه الملوثات كانت مطموسة المعالم بما فيه الكفاية .

(6)

ـ كان لحنك قنبلة الموسم حقا .
ـ إن ما بوجداني لم يتفجر بعد .
ـ وجدانك ؟!
ـ . . . . . .
ـ هم م م م .
● سئمت هذه الميكروفونات وأشرطة التسجيل والثرثرة الفارغة الحمقاء ـ من الأدمغة الفارغة الحمقاء ـ التي تقتل أي ذرة ابداع في بمنتهى الخسة والوحشية . اتركوني بالله عليكم .
● وأغلقت من خلفه الباب . قررت ان انتقل من منزلي الى أي مكان مجهول ، وأن أحصل على أرقام سرية للتليفون . بل لقد حسمت الأمر ، وقررت ان اعتزل الفن نهائيا ، ما دامت أخباري الفنية ـ التي تهمكم ولا تهمكم في الوقت نفسه ـ هي السبب في كل ما اعاني من فشل ذريع في حياتي . . . ، والسبب انتم : أنتم في صوركم البشعة والمقززة تلكم .

(7)

ـ بكم هذا النفر ؟!
ـ للعرض فقط .
ـ . . لكنك بالأمس بعتني مثله . . . !!
ـ بالأمس ؟! . . . سيدي : ان هذا النفير لم يعرض عندنا ، أو بأي مكان آخر ، قبل صباح اليوم .
ـ أقسم لك إن هذا حدث .
ـ . . . سيدي ، . . . . الدليل ؟! . . . . أين النفير الذي اشتريته بالأمس ؟! و . . . . ومن هنا ؟! . . . .

ومن أنا كما تدعي ؟!.

ـ للـ . . لقد فقد مني أثناء م م . . . . . مسيرة أمس .

● نظر الي نظرة تتهمني بألف شيء ـ نظرة لم استطع التهرب منها وانا أقول :

ـ ســ . . . . . شأشتريه بالثمن الذي تحدده . بعني اياه أرجوك . أنا في حاجة شديدة اليه .

ـ آسف . إنه للعرض فقط .

ـ تذكر جيدا : لقد بعتني بالأمس وا . . .

ـ الأمس الأمس الأمس . . . . !! . أي أمس هذا ؟! وعن أي شيء تتحدث ؟! . سيدي : هل أستدعى لك مستشفى المجانين ، أم رجال الشرطة ؟!

● وشيعني بنظراته المقيتة تلكم .

● أسرعت الى الميدان . لكن . . . ؟! . . . . لقد عاد كل شيء كما كان أول أمس ـ متاجر البضائع المستوردة ، والنساء المتبهرجات ، والعربات الفارهة الفخمة ، والطالبات في زيهن المدرسي يتسكعن أمام ابواب السينما ، والمقاهي المكتظة ، وإشارات المرور ، والاعلانات المستفزة ، والجنود .

● مال على احدهم وهمس في أذني :

ـ أو لم يعد بعد ؟!

ـ م م م من ؟!

ـ صاحبك ، من أخذوه بالأمس .

ـ . . . هـ ؟! . . لا أتذكره جيدا . صف . . صفه لي من فضلك .

● وعندما كان يصفه لي كنت ازداد يقينا بأنه حدث بالأمس ما حدث . لم أكن واهما او مخجولا او مصابا بانفصام في الشخصية إذن ـ كما حاول ان يتهمني ، أو يشككني بائع النفير . كل شيء كان يحدث في تسلسل واقعي مجرد من أي خيال ، لكن . . . ؟! . . . .

● أفقت من شرودي على صوته الهامس الدافيء :

ـ هل تذكرت ؟!

ـ نعم ، نعم . شكرا .

ـ لقد رأيت صاحبك من قبل ، لكنه كان أكثر حيوية ونضجا .

ـ ى ي . . يبـ . . . يبدو هذا . لكنني لا أستطيع ، مثلك ، أن أفسر ما جرى .

ـ أو لم يعد بعد ؟!

ـ . . . . !!! كنت سأسلك السؤال نفسه .

ـ . . . ؟! . . . !!

● انطلقت باحثا عنك في كل مكان : مضيء أو مظلم ، نظيف أو قذر ـ في كل مكان اتوقع أنك فيه أو اتهم فيه ـ لكن . . . . بلا جدوى ، فقد كانوا يجيدون المراوغة والخداع : كانوا كعهدي بهم دائما ـ في كل مكان وزمان ـ يقتلون القتيل ،ويمشون في جنازته .

***

تذييل :

● لم أصدم كثيرا عندما أجمعت كل أجهزة الاعلام على انك مطلوب حيا ، والأفضل ميتا .

الغرام الحبيس

احمد علي حسن

حتى م يبقى الحب ما بيننا ... سرا ، فلا نقوى على فضحه
يخشى كلانا ، ان يبح بالهوى ... والحب ، ان يعجز عن كبحه
خليه لغزا بيننا غامضا ... يضل حتى الحب عن شرحه
ترفه النفس بانسامه ... وننعش القلبين من نفحه
ونتقي التيه بأغواره ... ونضمن الهدي على سفحه
خله لغزا بيننا واطفيء ... ما شع في العينين من لفحه

الله ما اشهى الهوى خاطر ... لا يجسر الحس على بوحه
يستمتع القلب بكتمانه ... وينعم الخاطر في ذبحه
فلا تتيه النفس في حسنه ... ولا تقر العين في قبحه
ولا النهى يغرق في ذمه ... ولا الهوى، يسرف في مدحه

خله ، غير الفن لم يبده ... يوما ، وغير الفن لم يوحه
هذا الهوى المحفور في مهجتي ... تالله ، غير الله ، لم يمحه
تضللا اسرف في طعنه ... وخدعة ، امعن في جرحه
لأنني امنت في نصره ... واستسلمت روحي الى فتحه

احمد علي حسن

اللغة العربية في اطار اللغات السامية

بقلم : فولف ديترش فيشر

للغات السامية خصائص لغوية مشتركة ، وقد طورت كل لغة منها وجها أو آخر من هذه الخصائص بشكل ما ،وطورت العربية الخصائص الاصلية في احسن صورة واكملها ، هكذا يحدد العالم المشهور كارل بروكلمان موقف اللغة العربية بين اللغات السامية الاخرى في كتابة (الاساس في النحو المقارن للغات السامية) الذي صدر سنة ١٩٠٨

وقد بنى بروكلمان رأيه هذا على اعتبار ان العربية تمتاز على اخواتها كالعبرية والارامية والاكادية والحبشية في أنها حافظة على الاصول اللغوية السامية المشتركة على نحو لا نجده في غير العربية بنفس القدر ، فيعتبر معظم دارسي اللغات السامية العربية اللغة السامية الاكثر اصالة بينما اختفى كثير من الملامح الاصيلة من اخواتها ، وأهم النقاط التي تمتاز العربية بها وتقرر اصالتها هي النقاط التالية :

١ ـ كمالها في مجال الفونيمات (اي بعبارة تقليدية الحروف والحركات) •

٢ ـ وجود الاعراب فيها ، وهو ظاهرة نحوية قد ضاعت من اغلب اللغات السامية غير الاكادية والاوجاريتية والغربية •

٣ ـ اصالتها في مجال تركيب الجملة ، حيث تحتوي على كثير من خصائص تركيبية غير موجودة في اللغات السامية الاخرى على حد سواء ، ومن ذلك الفرق بين الجملتين الاسمية والفعلية على وجه الخصوص •

٤ ـ ثروتها اللفظية واصالة الفاظها : اشتقاقا ودلالة ، ولذا كان الباحثون في مجال اللغات السامية لمدة طويلة يعتبرون المعجم العربي مرجعا لفهم اللغات السامية الاخرى خاصة اللغات القديمة مثل الاكادية والفينيقية والاوجاريتية التي كانت لغات غير معروفة على الاطلاق قبل ان يعثر الباحثون على النقوش المكتوبة بها وقبل ان يأخذوا في ادراك معناها •

لقد مضى اكثر من سبعين عاما على رأي بروكلمان المذكور عن مرتبة اللغة العربية في الاسرة اللغوية السامية ، بيد أن البحث في هذه اللغات لم يتوقف أثناء تلك الفترة ، فقد اكتشفت اثناءها لغات سامية لم تكن معروفة في بداية هذا القرن ، وازدادت معرفتنا باللغات السامية ، وكذا كان علينا ان نعيد النظر في الحكم على العربية بالنسبة للغات السامية ، ونتساءل : هل حافظت العربية على منزلتها كلغة سامية اكثر اصالة بين اخواتها في ضوء الاكتشافات الجديدة في هذا الميدان ؟

ان اللغات السامية تنقسم الى ثلاثة انواع ـ وعلى هذا تتفق اغلبية العلماء رغم اختلافاتهم في التفاصيل ـ وهذه الفروع هي :

١ ـ الفرع الشرقي او بعبارة اخرى الفرع الشمالي الشرقي ، ويحتوي على البابلية والاشورية اللتين يجمعهما اسم الاكادية ، ويسمى هذا الفرع بالشرقي لان المناطق التي كانت الاكادية منتشرة فيها هي العراق والجزيرة ، ويغلب الظن ان لغة ابلة المكتشفة حديثا عند حفريات توجد في تل مرديخ القريب من حلب تنتمى الى هذا الفرع ايضا ، فلا يعود اسم الفرع الشرقي صالحا له ، ويسميه بعض العلماء

بالفرع الشمالي الشرقي ، وتعد هذه اللغات اقدم اللغات السامية المعروفة ، وترجع الى الالف الثالث قبل الميلاد •
٢ - الفرع الغربي او بعبارة اخرى الفرع الشمالي الغربي ، ويحتوي على اللغات المنتشرة في سوريا وفلسطين قبل انتشار العربية بها ، وتنتمي اليه الكنعانية التي منها العبرية والفينيقية والارامية التي قد تفرع منها كثير من اللهجات مثل السريانية والنبطية ، وبدأ اقدمها في القرن الثامن قبل الميلاد واستمرت الارامية دارجة في بعض المناطق الى وقتنا هذا ، وتنتمي الى هذا الفرع ايضا الاوجاريتية ، وهي لغة سامية قديمة اكتشفت سنة ١٩٢٩ م •
٣ - الفرع الجنوبي الذي يحتوي على اللغات المتأصلة في الجزيرة العربية وهي : اللغة العربية والحميرية والحبشية ، أما الحميرية فكثيرا ما تسمى بالعربية الجنوبية حيث انها تشبه من ناحية العربية التي كانت اصلا لغة قبائل نجد والحجاز الا ان انتشارها من ناحية اخرى كان مقصورا على اليمن ، ودونت النصوص الحميرية او العربية الجنوبية برموز المسند ، واما اللغة الحبشية فترجع الى الاصل العربي الجنوبي اذ حمل المهاجرون من مملكة سبأ اليمنية القديمة لغتهم العربية الجنوبية معهم الى بلاد الحبشة ، وتدل على ذلك النقوش المكتوبة بهذه اللغة ، وقد نقشت في بلاد الحبشة ما بين القرنين الثاني والثالث قبل الميلاد ، ثم انتشرت تلك اللغة العربية الجنوبية اصلا واخذ الاحباش المسيحيون يترجمون كتبهم المقدسة الى هذه اللغة التي يسمونها " الجعز " •

ولوصف منزلة العربية بين هذه اللغات السامية الاخرى يحسن بنا ان نتطرق الى اقدمها وهي الاكادية والاوجاريتية • فالاكادية من اقدم اللغات المدونة بواسطة الكتابة ايضا فضلا عن اللغة المصرية الفرعونية ، وكان اول منحمل صورة نقش من النقوش الاكادية معه الى اوربا الرحالة الدانمركي كارستين نيبور الذي زار سنة ١٧٦٥ المدينة الايرانية (اصطخر) حيث عثر على ثلاثة نقوش قام بنسخها ، تلك التي اصبحت فيما بعد اساسا لحل الرموز الكتابية الملتبسة المسماه بالخط المسماري، ومع ان احد العلماء الالمان في بداية القرن التاسع عشر قد نجح بعض النجاح في حل تلك الرموز المسمارية الا ان الاكادية ظلت لغة غامضة على مدى اكثر من مائة عام ، ولم يتغير الحال الا بعد العشرينات من هذا القرن حيث تقدمت المعرفة بالاكادية تقدما عظيما ، وان لم يرفع الستار عن كل اسرارها •

ونعلم الان ان اقدم الكتابات الموجودة باللغة الاكادية ترجع الى منتصف الالف الثالث قبل الميلاد ،وبقيت الاكادية دارجةحتى القرن السادس او الخامس قبل الميلاد ، ولم توجد كتابات اكادية مدونة بعد ذلك العصر الا نادرا جدا ، واستمرت حياة تلك اللغة اكثر من الفي سنة • ومن البديهي انها تطورت وتغيرت خلال تلك المدة الطويلة بشكل او بآخر ، وبناء على نتائج البحوث التي قام بهاعلماء اللغة في الثلاثينات نستطيع ان نفرق بوضوح بين الاشورية والبابلية ، اللهجتين او اللغتين اللتين تطورتا عن الاكادية في بداية الالف الثاني قبل الميلاد مما نستطيع ان نفرق بين عدة مراحل لتطور كل واحدة منها :

اما المرحلة الاولى للاكادية فبدأت في القرن الخامس والعشرين تقريبا الا انه ليس لدينا من الكتابات الاكادية المدونة في ذلك التاريخ الغابر سوى القليل ، ولم يثبت علماء اللغة في هذه اللغة العتيقة اختلافات لهجية ، ولذلك يسمونها بالاكادية العتيقة • وقد سميت بهذا الاسم نسبة الى مدينة (اكاد) عاصمة سرجون ؛ . الملك الكبير الذي حكم فيما بين النهرين في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد ، وذلك امر معروف الا اننا لا نعرف حتى الان في اي مكان كانت تقع هذه المدينة •

واستمرت المرحلة الاولى التي تسمى لغتها بالاكادية العتيقة من منتصف الالف الثالث حتى سنة الفين تقريبا ، واخذت بعدها تتصدع اللغة الاكادية الموحدة ، فنشأت عنها اللغتان

اللتان ظلت الاكادية مشتملة عليهما حتى اندثارها في القرون الاخيرة قبل الميلاد وهما الاشورية والبابلية ، ولكل منهما مراحل من التطور ، فيميز عارفوالاكادية بين الاشورية القديمة والاشورية الوسطى والاشورية الحديثة ، كما يميزون بنفس الطريقة بين البابلية القديمة والوسطى والحديثة •

ورغم ان هذه اللغات قد اختلفت منذ اكثر من الفي عام الا ان عدد الالواح المكتوب عليها بالاشورية او

البابلية المحفوظة يزيد على مائة الف لوح ، وكثير من الالواح ملقى في مخازن المتاحف ولم يطلع عليها احد بعد ان نقب عنها علماء الاثار واستخرجوها من الارض وكثيرا ما يعثرون على الواح جديدة عند حفرهم • ولم يقتصر العثور على تلك الالواح في العراق فحسب وانما في سوريا وفلسطين وتركيا وايران وحتى في مصر وبلاد الارمن ايضا ، اذ ان الاكادية كانت تستخدم في بلاد الشرق كلها كلغة للمكاتبة التجارية والدبلوماسية في ذلك الزمن •

ليس هنالك من شك في ان الاكادية التي استمرت حياتها اكثر من الفي عام هي من اهم اللغات بالنسبة لدراسة اللغات السامية والتاريخ القديم لبلاد الشرق ، بيد ان عدد دارسيها من العلماء قليل جدا ، ويرجع السبب في هذا الى ان نظام الكتابة الاكادية معقد للغاية فقد اخذ ابناء الاكادية نظام الكتابة هذا من السومريين ، وهم قوم اجانب اي ليسوا ساميين ، دخلوا ما بين النهرين - على ارجح الاراء - قادمين من الهند ، وكان نظامهم الكتابي صالحا للسومرية ولم يكن صالحا لاي من اللغات السامية ، لقد كانت تلك الرموز اصلا صورا شبيهة بالاشياء التي تشير الصور اليها ثم تغير شكل هذه الصور فأصبحت تشبه الرموز المسامير حيث كان الكاتب يضرب الرمز على اللوح الفخاري بواسطة اداة تشبه المسمار ولذا سمي هذا الخط باسم الخط المسماري الاكادي واما من حيث النظام فيسمى بالخط المقطي لان الرمز الواحد لا يعبر عن صوت واحد - الامر الذي اعتدناه بالنسبة للابجديات الحديثة - بل عن مقطع تام او كلمة تامة ويرجع ذلك الى تلك الصور الاصلية التي كانت تشير الى الاشياء والكلمات الدالة عليها ، فالرموز المسمارية التي تشير الى مقطع تعبر اما عن مقاطع ساكنة مثل تن ولم وتك ودس وغيرها واما عن مقاطع متحركة مثل ب و ب و ب و ث و ت و ت •
وهناك نوع اخر من الرموز دال على مقاطع تجيء فيها الرموز الحركة قبل الصامت مثل اب و اب و اب وغيرها ، وكثرة الرموز هذه ضرورية لان يعبر الكاتب الاشوري او البابلي عن جميع المقاطع الموجودة في لغته او في لغة اخرى •

وعندما يكتب كلمة مثل (شمشم) وتقابلها في العربية كلمة شمس - يحتاج الى اربعة رموز ش وام وش وام •

ويضاف الى كثرة الرموز اللازمة للتغيير عن المقاطع الموجودة في اللغة ان للكتابة الاكادية رموزا تعبر عن كلمة تامة وهي التي تسمى بالرموز المعنوية حيث انها تدل على المفهوم بغض النظر عن اللفظ ، فحين نرسم رمزا معناه (السنة) يجوز عند القراءة ان نقول (السنة) اوالعام او الحول ، لان معناها جميعا واحد •

ان دارس اللغة الاكادية تواجهه صعوبات اخرى يتعلق بعضها بالنظام الكتابي ايضا ، فقد تغيرت اشكال الرموز من عصر الى عصر ، ولذلك فعلى من يريد تعلم الاكادية ان يحصل على المعرفة باشكال مختلفة لكل الرموز الموجودة ، ولكن لهذا النظام الكتابي رغم صعوبته وتعقيده نفع كبير :
فهو يخبرنا عن نظام الحركات ، وهذا ما لا تستطيعه ان يحققه الخط الابجدي الذي دونت به الفينيقية اوالارامية وغيرهما من اللغات السامية ، ولذلك فاننا لسنا على علم بما اذا كانت الفينيقية لغة ذات اعراب ، فالخط الفينيقي لا يعبر عن الحركات في حين اننا نعرف وجوده بالتأكيد في اللغة الاكادية حيث يقيدنا الخط الاكادي المقطعي بان للاسم اعرابا على نحو ما نجد في العربية ، ومثال ذلك (بيتم) المقابلة لبيت في العربية حيث تبدو الضمة مشيرة الى الرفع وبيتم بالكسر حيث تشير الكسرة الى الجر ، وبيتم بالفتحة التي تشير الى النصب ، ومثال اخر كلمة " كليم " المقابلة لكلمة (كلب) في العربية ، وهذا هو شكل الكلمة بالرفع وتوجد ايضا (كلبم) المجرورة و(كلبم) المنصوبة • وعندما نقارن الاسماء مثل (كلبم) و (بيتم) ، بمقابلاتها العربية نلاحظ فيما ميما نهائية كلاحقة مناظرة للتنوين فيالعربية او بعبارة اخرى للنون الدالة على التنكير •

ورغم هذه المشابهة اللافتة للنظر بين الميم الاكادية والنون العربية الا ان بعض العلماء يشكون في تماثل لاحقة الميم الاكادية بنون النكرة ، وذلك لان وظيفة هذه الميم لم تكن واضحة لمدة طويلة ، فيتوهم البعض ان الميمالنهائية في الاكادية ليست ذات فائدة نحوية قابلة لنون النكرة حيث لا يوجد في الاكادية شكل خاصبالاسم المعرف وشكل اخر خاص بالاسم النكرة ، فيدل مثلا(بيتم) على المعرفة اي البيت كما يدل على

النكرة اي بيت دون اختلاف في الشكل ، وظاهرة عدم وجود اي اختلاف بين المعرفة والنكرة من جهة الشكل موجودة في عدد كبير من اللغات • خاصة في اللغات القديمة المندثرة مثل اللاتينية والهندية العتيقة (السنسكريتية) والفارسية القديمة التي الفت بها الكتب الايرانية المقدسة ومن ذلك ايضا اللغة الروسية المعاصرة • ولنأخذ على سبيل المثال الكلمة اللاتينية التي تدل على النكرة اي " انسان " كما تدل على المعرفة اي " الانسان " دون اي تغيير صرفي بينما نفرق في الفرنسية المنحدرة من اللاتينية بين اي انسان و اي الانسان ، فنرى ان عدم وجود الفرق بين المعرفة والنكرة في شكل الاسم الاكادي ليس من الاشياء العجيبة

ويميل العلماء حديثا الى الظن بان وظيفة لاحقة الميم في الاكادية كانت علامة للمفرد فدلت (بيتم) بالميم على المفرد اي البيت او بيت ودلت (بيتو) بلا ميم على الجمع اي البيوت او بيوت ، ويتضح من ذلك ان نون النكرة العربية ترجع الى الميم الاكادية التي كانت في الاصل علامة للمفرد ، وذلك لان لهذا التطور من علامة المفرد الى اداة التنكير امثلة مطابقة في كثير من اللغات منها الفرنسية التي لها اداة للنكرة هي للمذكر و للمؤنث ، وترجع علامة النكرة الفرنسية الى اسم العدد اللاتيني التي معناها الواحد ، ومنها الالمانية ايضا حيث تدل الكلمة نفسها على الواحد كما تدل على النكرة •

اما بالنسبة لاعراب الاسم وهي الظاهرة النحوية التي تعتبر دليلا على اصالة العربية فنرى ان العربية ليست اللغة السامية الوحيدة التي تحتوي عليه بل نجده في الاكادية والاوجاريتيه ايضا الا ان الاعراب الاكادي كان ظاهرة لغوية حية في مرحلتها الاولى فقط ثم فقدت الاكادية الاعراب خلال عبورها الى المرحلة الثانية التي نشأت فيها اللغتان : الاشورية والبابلية ، واصبح ابناء البابلية والاشورية خاصة الكتاب منهم يعتبرون الاعراب في لغتهم ظاهرة خاصة باللغة الادبية التي يستخدمونها للتدوين بينما تخلصت منه اللغة الدارجة ، ولذا لم يتقن الاعراب الا المثقفون منهم المتبحرون في اللغة العتيقة وان كانوا يخطئون فيه ايضا ، وبعد فترة طويلة او قصيرة نسي اولئك الكتاب الاشوريين والبابليون قواعد الاعراب تماما فظنوه زينة غير مفيدة للغة وصاروا يزودون ، الاسماء به دون نظام نحوي • وبالنظر الى تاريخ اللغات السامية فانه من الجدير

بالذكر ان العربية التي دخلت التاريخ في القرن الخامس الميلادي قد حافظت على ظاهرة الاعراب بينما كانت الاكادية قد فقدته قبل الميلاد بالفي عام •

لقيت القبائل السامية التي دخلت ما بين النهرين في منتصف الالف الثالث كثيرا من المجالات الحضارية غير المعروفة لديهم فأخذوا يقبلون بعضا منها ، ولم يكن تقبلهم مقتصرا على المكتسبات المادية فقط ، بل اخذوا من العادات الاجتماعية واللغوية ايضا ، وبعد زمن قليل نسبيا صارت الوغود السامية ـ وهم الذين نسميهم بالاكاديين ـ تعتاد على نمط النطق السومري ، ونتيجة لذلك ابدل ابناء الاكادية الاصوات المنطوقة بين الاسنان التي لاتجهلها السومرية الى اصوات نظيرة لها وهي اصوات الصفير فصاروا ينطقون الثاء

شينا والذال زايا والظاء صادا ونطقوا مثلا (شورم) المقابلة للثور في العربية او (صلم) المقابلة للظل ، وفقدت الاكادية بسبب تأثير السومرية فيها بعض الفونيمات الخاصة باللغات السامية والتي بقيت موجودة في العربية وهي الاصوات الحلقية الهمزة والحاء والعين والغين، ولم تختف هذه الفونيمات تماما بل تركت آثارا صوتية في نطق الكلمات التي كانت تحتوي عليها من قبل ، فقد ابدلت الفتح الى ما بين الفتح والكسر اي ( ) بجوار الهمز والعين والغين والحاء او بعبارة ادق امالت الهمز والعين والغين والحاء من الفتح الى الكسر قبل اختفائها وبقيت امالة الفتح بعد فقدان هذه الاصوات الحلقية فقالوا مثلا (ريشم) بدلا من (رأشم) الاصلية المقابلة لكلمة (رأس) في العربية او (اربم) بدلا من (غربم) الاصلية المقابلة لكلمة (غرب) في العربية • ومن الجدير بالذكر هنا ان الاكادية التي هي بالنسبة لظاهرة الاعراب في منزلة العربية قد انحرفت في ميدان الاصوات عن الاصل واقتربت من المرحلة التي تقوم الفينيقية او العبرية عليها •

ولتحديد منزلة العربية في اطار اللغات السامية نلقي نظرة على اللغة الاوجارتية وهي من اقدم اللغات السامية ايضا • لقد عثر علماء الاثار خلال حفرياتهم فى راس شمرا بالقرب من ساحل

الشام على آثار مدينة قديمة كان اسمها اوجاريت واكتشفوا هناك مجموعة كبيرة من الواح فخارية مكتوب عليها بخط تشبه رموزه رموز الخط المسماري البابلي او الاشوري من حيث الشكل الظاهري الا ان الخط الذي دونت به الكتابة الاوجاريتية والنصوص الاوجاريتية كان مختلفة عن نظام الخط المسماري البابلي اختلافا تاما ، وقد تبين هذا الامر على الفور قبل فك اسرار هذه الرموز ، يشتمل الخط المسماري الاوجاريتي على واحد وثلاثين رمزا بينما كان عدد الرموز المسمارية البابلية او الاشورية اكثر من مائتين ، ويقوم الخط الاوجاريتي على اساس النظام الابجدي ويشابه الخط المسماري من جهة الشكل الظاهر فقط الا ان له ميزة يتميز بها عن جميع الخطوط الابجدية السامية

الاخرى ما خلا الخط الحبشي ، فالخط الاوجاريتي يملك ثلاثة رموز دالة على مقطع مركب من صامت ومتحرك - وكان هذه الميزة بقية النظام الكتابي المقطعي الخاص بالخط المسماري الاكادي - والرموز الثلاثة الدالة على الصامت المتحرك هي الرموز المعبرة عن الهمزة ، فيعبر اولها عن الهمزة المفتوحة والثاني عن الهمزة المكسورة والثالث عن الهمزة المضمومة ، وكلما وجد احد هذه الرموز احاطنا ذلك علما بالحركات في اللغة الاوجاريتية •

وان المعلومات التي تمدنا بها هذه الرموز لا يمكن ان يبالغ في تقديرها مهما قلنا ، فمنها نستطيع ان نعرف ان عدد الحركات يقابل عدد الحركات في العربية تماما ويستفاد من الاسماء الاوجاريتية المتضمنة احدى الهمزات - عندما يكون الهمز اخر حرف في الكلمة - بان هذه اللغة التي كانت دارجة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر قبل الميلاد ملكت ظاهرة الاعراب على نحو ما نعرفه في العربية والاكادية ، فهناك مثلا كلمة (كسيء) المقابلة لكلمة (كرسي) في العربية وهي لا تخلو في اخرها من احدى الهمزات الثلاث فيدل الهمز المضموم على الرفع الذي يأتي مبتدأ او فاعلا والهمز المفتوح الذي يدل على النصب الذي يأتي مفعولا به ونجد في نص من النصوص الاوجاريتية عبارة (تحت كسيء) اي تحت الكرسي حيث يدل الهمز المكسور على الجر ، ولو اردنا وصف اللغة الاوجاريتية من حيث اكثر ملامحها لقلنا انها لغة جاء بها اسلاف القبائل العربية حين وفدوا الى تلك المناطق الشامية ، لان اللغة الاوجاريتية اقرب اللغات السامية نحوا وصرفا من العربية ، ولكن هذا لا يعني السكوت عن بيان اختلافاتها عن العربية ومن اهمها عدم وجود اي اداة دالة على النكرة او المعرفة ، فتدل الكلمة المذكورة (كسيء) على النكرة اي كرسي كما تدل على المعرفة اي الكرسي دون اي فرق بين الاسم المنكر والاسم المعرف وهي نفس الظاهرة التي عثرنا عليها في الاكادية حيث لا يعرف الاسم اشكالا مميزة للنكرة من المعرفة ايضا وهذا بلا شك هو الوضع الاصلي للغات السامية •

ان دراسة اللغات السامية ميدان واسع ، ولذا فمن غير الممكن في هذا المكان المحدود ان نتناول الا القليل من المسائل المتعلقة بالتساؤل عن منزلة العربية او مكانتها بين اللغات السامية الاخرى ، ويكفي هذا البحث القصير لكي نرى ان العربية من اكثر اللغات السامية اصالة حتى بالنسبة للغات التي هي اقدم منها بكثير •

فولف ديتر ش فيشر

لالئ منثورة

فاتح المدرس

الاميرة

ان تفكيرها الصاعق ، وحديثها
عن الحب ، والحياة ، والذهب ، كان
كحديثها عن نوع الدخان الذي تسحبه الى
رئتيها الضجرتين من كل شيء في الوجود.

ماضيك حطام بريء وانت معبد من معابد الجمال ،
وأميرة من الاساطير انت ، تموجين امامي كالدخان ،
وعلى جناح عبقري خاطف ، بارع الشر ،
طار بي ، البارحة ، حديثك اللامبالي ..

*

جنية الجمال ، يا شرقية السحر ، انت من خطوطي . . .

*

وحلما زغردت النار في اتون شبابي ،
او تحدثت نفسي عنك في برجي ، يا اميرتي ،
مد كأسي ، الذي شارف الفراغ ، ذراعه ،
يطلب المزيد من ضجر قاتل ، لذيذ ، لا يفسر ...!

*

لقد رسمت حولي كياني خطوطا ثلجية مضنية ،
سمرتني حيث أنا ،
واوهمتني ان الكون حديقة ظن رهيبة الجمال ..
أيتها الاميرة .. لقد تم لك صلبي في الفراغ ،
وبت اخشى انهياري ،
والان ... املئي الكأس .. ؟

*

وقبل ان تسقط الكأس من يدي ،
نفثت من فمها الرماني سحابة من دخان
في كأس شبابي ،
وقهقهت قائلة :
ـ اشرب ، هيا اشرب ، يا صغيري ، لم لا تشربني؟ ؟ ؟
اولست من خطوطك ، من دخانك ؟ ؟
وكتمت قهقهتها الساخرة دفعة واحدة ، وحدقت كالموت
وهمست متلاشية :
اولست من خطوطك ... ؟ هيا ..

*

وتوارينا خلال اروقة همس الاميرة ...

*

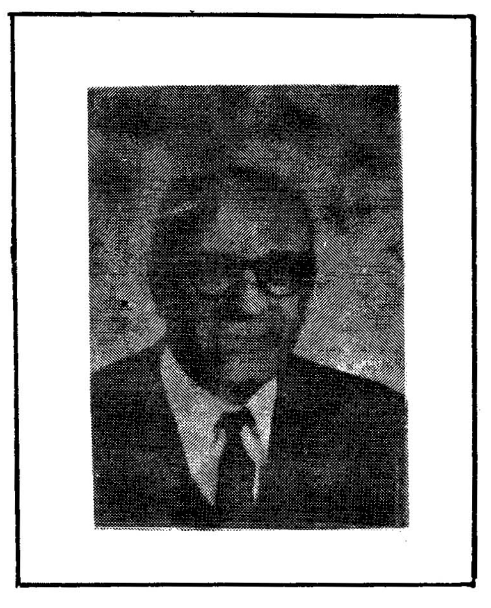
فاتح المدرس

نيران على القمم

سيرة ذاتية

الحرب العالمية الثانية والحقوق والاولاد

« ٢٥ »



سعيد ابو الحسن

أعلنت الحرب العالمية الثانية ذلك الصيف ، واصبحت الصبغة العسكرية هي السائدة في الحياة اليومية فالجيش الفرنسي تتزايد اعداده وتتنوع فرقه ، وفرنسة عادت الى مسايرة الوطنيين واعطاء الحكومة الوطنية مقدارا اكبر من حرية التصرف ظاهرا ، والوطنيون اعتقدوا ان مصير بلادهم متوقف على نهاية هذه الحرب فان انتصر المحور فهذه وعود المحور المتدفقة من اذاعاته الموجهة الى العرب ، وهذا صوت يونس البحري وهو يصرخ (حي العرب) في مطلع كل اذاعة ، وان انتصر الحلفاء فهذه وعودهم بلسان كاترو - وان عادوا الى المراوغة عدنا الى النضال وهم سيكونون اضعف على كل حال .

أما انا فقد اعتبرت الحرب العالمية نوعا من الفرصة - الهدنة لأنهي دراستي واضع خططي للمستقبل ، سأكتب للشرق العسكري التي بدأ الاستاذ الشيخ فؤاد حبيش يصدرها مقالات عن عاداتنا الحربية وقصة قصيرة من قصص البادية . وحين كنت اتلقى حوالة بعشر ليرات سورية عن كل مقالة كنت اعتبر في اسعد خلق الله ، فهذه اول مرة اشعر بأن النتاج الفكري له قيمة مالية وان الانسان يمكنه ان يعيش بقلمه لو وضعت الامور في نصابها الصحيح .

غير ان الفرنسيين - على ما يظهر - كانوا يحسبون لي حسابا آخر - فكأنني من ضمن استعداداتهم الحربية ، وذلك انني فوجئت اواخر عام ١٩٣٩ بصدور قرار يقضي بنقلي من مديرية المعارف الى مديرية العدلية كاتبا مترجما لدى محكمتي البداية والاستئناف اللتين كان يرأس كلا منهما رئيس فرنسي ومعه قاضيان

من ابناء البلاد •

كان النقل تعسفيا لا مبرر له الا الرغبة في ابعادي عن المدارس والطلاب ، ولكني لم اتذمر ، فقد كنت اعرف طريقي ولن يبدل النقل شيئا من تصميمي على متابعة السير في هذه الطريق (١) • وما دام الامر الذي لا مرد له قد نفذ ، فلنحاول الافادة من ايجابياته بدلا من اضاعة الوقت في التذمر من سلبياته ففي جو المحاكم والمحاكمات سأكون في جو الدراسة الحقوقية وفهم النظريات وهي تطبق على الواقع ، وهذا كسب لا يعادله كسب ، لو كنت تخليت عن رسالة التدريس مفضلا مصلحتي الشخصية لكان في المسألة ما فيها ، اما وقد حصل كل شيء بارادة قاهرة فلا مجال للوم او الحسرة •

كان رئيس قلم الاستئناف والجنايات (رئيس الديوان) هو السيد طعمه اللبناني وكان يقوم بدور الترجمة وكتابة ضبط الجلسات في محكمة الجنايات والاستئنافه وكان يرأس هذه المحكمة السيد سيرو وهو قاض قديم متمكن من مادته ، صاحب نكتة ومزاح ، وكان المستشاران من مواطني المحافظة احدهما متعلم يتقن اللغتين العربية والفرنسية ، وقد درس الحقوق، ولكني كنت اسمع أنه لم يتخرج في الحقوق بل غادر المعهد قبل نيل الشهادة ، اما الثاني فوجيه محترم يحسن القراءة والكتابة العاديتين بلاعلم منتظم و صار يقوم بكتابة الضبط بعد ذلك السيدمحمود ابو عسلي (ابو ناجي) وهو يحمل شهادة الدراسة الثانوية ويتقن اللغتين العربية والفرنسية •

اما محكمة البداية فكان رئيسها السيد روبير مانيان ، وكان يرأس المحكمة العسكرية في بيروت في الوقت ذاته ، وهو من ارقى من عرفت من القضاة : علم ، وعقل راجح ، ونزاهة، وحزم ، وحسن تصرف ، وبعد عن التعصب •

وقد توليت مسك ملفات هذه المحكمة وسجلاتها فكنت اترجم الاوراق الى اللغة الفرنسية واجهز الملفات وانظم التبليغات حتى اذا قدم السيد مانيان ليعقد الجسات يجد كل شيء معدا للنظر - وأقوم بالترجمة الفورية خلال المحاكمة مدنية وجزائية ، وألخص دفوع المحامين الشفهية ومذكراتهم الخطية فوريا ايضا، وكان بعض المحامين يأتون من دمشق فضلا عن المحامين المقيمين في السويداء ، وهؤلاء كان منهم المتخرجون في الجامعة ومنهم المأذونون بالمرافعة - ولاحظ الرئيس مانيان ما كنت اقوم به من اعمال متعددة فأخذ يعتمد علي في اعدا مسودات الاحكام بعد انيلفظ ملخصها خلال المحاكمة ثم اقوم بنسخها على الالة الكاتبة باللغة الفرنسية طبعا - واعدها للتوقيع وبهذا تكون النسخ اللازمة للمتقاضين جاهزة حين توقيع الحكم • واكتسبت بهذه الطريقة المزيد من الخبرة • وكنت اشترك في المذاكرات (المداولات) مترجما بين الرئيس وعضوي المحكمة اللذين كانا من وجهاء المنطقة ويحسنان القراءة ، والكتابة البسيطتين جدا - وحين كان يغيب السيد طعمة كنت اتولى الترجمة في المحاكمات الاسئنافية والجنائية واشترك في المذاكرات ايضا - وتعرفت الى امور كثيرة جعلتني اقتنع اننا بحاجة الى تغيير كل شيء في حركاتنا المقبلة ، فلا خير في رجال اميين أو شبه اميين ، يتمسكون بالتقاليد العشائرية ويخضعون كل شيء لمقاييس لا يقرها عقل ولا يقبل بها وجدان • كانت قضايا القتل والجرائم

الكبرى مجالا لتصارع العائلات المتنافسة وكيد بعضها للبعض الاخر ، وخلق الشهود وتحريف الوقائع ، وقد كتبت بعنوان (من مفكرة محام) في مجلة الخابور التي اصدرتها في الخمسينات في القامشلي بعض ذكرياتي عن تلك الغرائب التي شهدتها في المحاكم .

واورد هنا حادثة واحدة جرت صيف ١٩٤٠ لعلاقتها بما جرى خلال تلك السنة معتذرا عن افشاء احد اسرار المذاكرة ، بعد اربع وثلاثين سنة ، لقد حدث بعد غزو الجيش الالماني لفرنسة وسقوط باريس وتشكيل حكومة فيشي (بيتان) نوع من التشفي في نفوس مواطنينا المغلوبين على امرهم - فصاروا يعبرون عن هذا التشفي بشتى الطرق - وفي احد الايام ساق رجال الدرك الى المحكمة مواطنا من احدى القرى بتهمة تلفظه باقوال جارحة ملخصها : " اذا كان الفرنسيون رجالا فليذهبوا او يغسلوا عارهم هناك في باريس حيث سحقهم الجيش الالماني وليتركونا وشأننا .. فلقد عرفناهم الان على حقيقتهم .. " وأمضى هذا المواطن مدة في السجن الاحتياطي قبل أن تجري محاكمته ، ويوم المحاكمة اعترف الرجل ضمنا بما قال ، وبرر ذلك بأنه لا يمكن ان يكون تفكيره مختلفا ، مادام الفرنسيون يحتلون بلاده وهم عاجزون عن حماية بلادهم وخلال المذاكرة رأيت العجب العجاب : يسأل الرئيس كل عضو عن رأيه فيجيب الاول : السجن ثلاث سنوات ، ويجيب الثاني : مزايدا " اقصى عقوبة ينص عليها القانون " وضحك مانيان وقال: " لا ، لا ايها السيدان الزميلان ، ان هذا المواطن لم يقل شيئا يختلف عن تفكيرنا جميعا - والفرق بيننا وبينه انه كان شجاعا فأعلن رأيه ، بينما ، نحن لم تكن لدينا الشجاعة اللازمة لاعلان رأينا ، انه لا يستحق اية عقوبة ولكن بما انه امضى مدة رهن التوقيف الاحتياطي وحتى لا تكون فضيحة لو اعلمنا براءته ، اذ يقول الناس : كان موقوفا وهو برىء" لذلك سأكتفي بمعاقبته بالمدة التي امضاها على ان تغطي السجن والرسوم معا بحيث يخرج حالا ، فما رأيكما ؟ ""
وتبدل الموقف وراح القاضيان (المحترمان يمتدحان اخلاص الرئيس ، وترفعه عن روح الانتقام ، وقد نسيا ان العار قد لطخهما منذ اعلنا رأيهما قبل دقائق ..

كنا نعيش منذ عام ١٩٣٩ في حالة نكسة انفصالية ، ولا بد لي هنا من ايراد واقعة تتعلق بهذا الموضوع ، فقد كانت في الغرفة التي عينت لعملي في المحكمة صورة لرئيس الجمهورية المستقيل منذ عام ١٩٣٩ بسبب نكول فرنسة عن المعاهدة السيد هاشم الاتاسي ، صورة بقيت معلقة لعدم وجود شخص من بلادنا يقبل بازالتها - لعدم ايماننا بالكيان الانفصالي المفروض علينا واعتبارنا السلطة الشرعية هي التي يقيمها الشعب وحده ، وفي احد الايام فوجئنا بزيارة المحافظ الممتاز (الامير) حسن الاطرش وهو الذي حل محل رئيس الجمهورية بالنسبة الى المحافظة ، وبات يملك حق اصدار العفو ، واصدار قرارات لها قوة القانون - وحينما دخل الى غرفتي وتفحصها خاطبني وهو ينظر الى صورة الرئيس الاتاسي ، بقوله (باللغة الفصحى)
- " هذا هنا "
فأجبته :
- نعم فهو مايزال في نظري رئيسا للجمهورية .

وخرج المحافظ ولم يقل شيئا آخر، ولم يتخذ اي اجراء ، وبقيت الصورة مكانها. ولا اريد ان اذكر كل الحوادث اليومية فهي عادية جدا ، غير اني افدت كثيرا من عملي بالمحكمة ، فقد صرت ملما بجميع الاجراءات (اصول المحاكمة) وبالقوانين المدنية والجزائية وكيفية تطبيقها وتفسيرها - وهذا افادني في دراسة الحقوق فصرت اتقدم للامتحانات السنوية كل عام .

على الصعيد العائلي : ولد ابني البكر في ١٨ أيار ١٩٤٠واسميته عدنان ، وعام ١٩٤١ كانت حركة الفرنسيين الاحرار بقيادة الجنرال ديغول قد اصبحت ذات قوة فاتفق ديغول مع الانكليز على احتلال سورية ولبنان واخراج قوات حكومة فيشي منها .

كان هناك ، الى جانب العنف الفرنسي ، الدهاء الانكليزي ، ومن عادة الانكليز أن يحاولوا الفتح بالمال قبل السلاح ، فأقاموا لهم معسكرا في (القدس) في الاردن وهي قريبة من حدود الجبل ، وراحوا يجذبون الناس ويطوعونهم جنودا في القطعات الزاحفة او يعطونهم المال ويعيدونهم الى الجبل دعاة لهم او - على الاقل - مواطنين مسالمين قانعين بأن لا فرق بين فرنسيي فيشي وفرنسيي ديغول ، ما دام الاحتلال مفروضا على البلاد بالقوة ، وكان (بوفييه) قائد فرنسيي فيشي في السويداء يزمجر ويتخذ الاحتياطات للمقاومة ، ورأينا الخنادق تحفر حوالي السويداء والاستحكامات تقام ، وحركة تطويع الجنود من ابناء البلاد قائمة على قدم وساق ، ولعبت المرحومة اسمهان - أملي الاطرش - دورا بارزا بهذا الخصوص ، حين حملت الاموال الى البارزين من افراد الاسرة بحكم زواجها السابق من الامير حسن وبدأت المناوشات على الحدود، واحتل الانكليز مدينة بصرى الواقعة على حدود الجبل واقاموا فيها مركزا للتطويع وللدفع من أجل تحييد سكان الجبل في الصدام المقبل بين الزاحفين والمحتلين.

ورأيت نفسي كيف يتهالك الناس على قبض المال الاجنبي ، بحجة ان هذا المال سيصرف في جميع الاحوال ، ولماذا لانستفيد منه ؟ وبقيت صامدا مع بضعة اصدقاء كانوا يلتزمون برأيي ، ويفضلون نظرياتي الوطنية القومية ، التي تأنف ان يصبح العربي عميلا ، وان العمالة ليست لها ، درجات ، بل هي اما تكون اولا تكون . وقد استشارني كثيرون وانقذتهم برأيي ، من السقوط وظلوا يذكرون لي هذا الفضل طوال حياتهم . ممن اصبح لهم شأن في مجالات الحياة المختلفة وردوا الحوض الملوث ونهلوا ولكن مجتمعنا الضعيف الذاكرة ، الواسع الضمير ، تناساهم ولم يحاسب احدا منهم ، كما لم يحاسب اي مواطن على مواقف اشد هولا ، وعلى خيانات أفظع من هذه ، وظلوا يعيشون بيننا في وقاحة لا توصف ، ومجتمعنا العربي الذي لم يقم بواجبه في هذا المضمار ، وما يماثله في الوطن العربي كله دفع ضريبة تقصيره مرات ومرات ، ليس يوم الثامن والعشرين من ايلول ١٩٦١ يوم جريمة الانفصال ، أقلها شأنا او آخرها رتبة وزمانا ..

ودارت رحى معركة الاحتلال الجديد يخوضها جنود انكليز وفرنسيون ديغوليين ومتطوعة عرب ، واسترليون ، وهنود، وأفارقة من جهة وجنود فرنسيون فيشيون ومتطوعون عرب ومشارقة ومغاربة وافارقة

واسيويون من جهة اخرى ، وتعرضت السويداء لعدة غارات جوية ضربت خلالها المواقع العسكرية وبعض المرافق المدينة وكنا مرة نخرج من الدائرة ساعة الغارة فلاحظت ان بعض الموظفين يفقدون رشدهم فيتوجهون الى الداخل ويصطدمون بالجدران بدلا من التوجه الى الخارج واحتفظ بهدوئي واضحك مما ارى • واقتضت الاحوال المتفاقمة أن أنقل زوجتي وطفلنا الى بيتنا في عرمان - وهناك شهدنا معركة بين مدفعية قلعة صلخد واحدى المفارز المتطوعة مع الانكليز ، وكانت قنابل مدفع الميدان البعيد المدى تئز مارة فوقنا وتنفجر في مواقع الخيالة الذين تبعثروا شرقي بلدتنا ، وعدت الى عملي وحدي ، وبقيت حتى انتهت المعركة بفوز الديغوليين ، ولكن بدا لي ان الحرب كانت تمثيلية اكثر منها حقيقية - فلقد بقي الكثيرون من الضباط الفيشيين بعد احتلال الديغوليين ونقلوا ولاءهم من بيتان الى ديغول ، واعلن كاترو زعيم الديغوليين في سورية ولبنان استقلال سورية وزار ديغول البلاد ، ورأيناه لاول مرة حينما زار السويداء وكنا معجبين به وبشجاعته وصموده ايما اعجاب •

وباعلان الاستقلال وتشكيل حكومة جديدة عاد الجبل محافظة ذات استقلال مالي واداري ، وعين واحد من ابناء الجبل وزيرا للدفاع ، وظل وزيرا حتى توفي ونقل جثمانه من دمشق الى السويداء وبعد وفاته حل احد اقاربه محله وزيرا للدفاع ايضا • فأدركنا ، من تسلسل الحوادث ، ان الموافقة على التحاق المحافظة بالعاصمة ، حتى مع الاحتفاظ بالاستقلال الاداري المالي ، كان التحاقا مشروطا ، حدد الزعماء مع الفرنسيين شروطه لصالح الزعماء ، وضد الصالح الوطني العام ، كما سيظهر في المستقبل القريب •

كان علي ان أفيد من فترة الهدوء النسبي ، فترة المهادنة ، وانصرف الى اتمام دراستي فنجحت في السنة الثانية ، وبقيت امامي سنة واحدة - وفي العام الدراسي ١٩٤١ - ١٩٤٢ قمت بجهد أخير جبار ، فالى جانب دراستي الحقوقية ، أعددت رسالة للحصول على شهادة خاصة في تاريخ الادب العربي من معهد الاداب الشرقية في بيروت ، وكان موعد تقديم الامتحان والرسالة خلال شهر ايار ، وكنت الاول بين الطلاب الستة عشر الذين تخرجوا ذلك العام ، وكان موضوع الامتحان (من هو الاديب) وكانت رسالتي مظاهر الادب في جبل الدروز ، ونجحت في امتحانات الحقوق في موعدها وحملت بعض المواد الشفهية الى الدورة الثانية في تشرين وحصلت على الاجازة في الحقوق في تشرين الثاني ١٩٤٢ •

عدت الى السويداء شخصا آخر :

لم اعد مضطرا الى البقاء موظفا ، لقد أمسكت مفتاح السجن بيدي وسألج باب العمل الحر من بابه الواسع - ولم امكث موظفا غير شهرين حتى نهاية عام ١٩٤٢ • وحين تقدمت بطلب الاستقالة طلب الي المحافظ أن أبقى موظفا على أن أعين قاضيا ، فشكرت له ذلك ، واعتذرت عن عدم امكان القبول ، لأنني صممت على الاشتغال بالمحاماة ، ولأنني لا أريد أن أعين قاضيا حين ارى منصب القضاء وقفا الوجهاء شبه الاميين - وقد ادرك مافي هذا التلميح من غمز ، ولكنه تجاهل ذلك ، وقبل الاستقالة داعيا لي

بالتوفيق .

وحين تركت العمل الوظيفي (١)، كتبت قصيدة " الى الحرية " التي نشرت في جريدة الجبل التي اصدرها الاستاذ نجيب حرب ، وقد نشرت في مجموعة غزة ـ هانوي تشرين التي ذكرتها سابقا .

(١) صدر قرار الاستقالة في ١٩٤٣/١/٤ وكان الانفكاك صباح ١٩٤٣/١/٥

حب الحياة

... فاصغي الى همس الجداول جاريات في السفوح
واستنشقي الازهار في الجنات ما دامت تفوح
وتمتعي بالشهب في الافلاك ما دامت تلوح
من قبل ان يأتي زمان كالضباب او الدخان
لا تبصرين به الغدير
ولا يلذلك الخرير

لتكن حياتك كلها امنلا جميلا طيبا
ولتملأ الاحلام نفسك في الكهولة والصبى
مثل الكواكب في السماء وكالأزاهر في الربى
ليكن بأمر الحب قلبك عالماً في ذاته
ازهاره لا تذبل
ونجومه لا تأفل

مات النهار ابن الصباح ، فلا تقولي : كيف مات ؟
ان التأمل في الحياة يزيد الآم الحياة
فدعي الكآبة والاسى واسترجعي مرح الفتاة
قد كان وجهك في الضحى مثل الضحى متهللا
فيه البشاشة والبها
ليكن كذلك في المسا

ايليا ابو ماضي

الحسن الالهي

ابراهيم منصور

عبيرك ، لا استاف عطرا ولا زهـرا
ووجهك لا اهوى غروبا ولا فجـــرا

وريقك ، لا ريق الكؤوس ولا الطلى
اذا لعبـت في عطف شـاربها سكرا

وصدرك ، لا العاج الوضيء ولا السنا
لعل الـه الكون في وصفه ادرى

وبرعم نهديك الحبيبين مذبــــــح
تلقمه احشاءهـا الوردة الحمــرا

نفضت يدي من كل حسـن يحيط بـــي
لاني عبـدت الحسن في الضفة الاخرى

فؤادي على جفنيك ما شـئت موتــه
تردى ،واما شئت نعمى يعش دهـرا

بعينك حبي ومضـة تمطـر المنـــى
فلاتطفئي ذاك الوميض اذا ذرا

حيـــاة بني الدنيــا صحارى قواحـل
واعيـن اهل الحسـن واحتها الخضرا

تريك وريقات الخريف زواهيا ... كأنك في نوار تقتطف الزهرا
وتحسب ان العمر فيها كأنه ... يمر ، ولكن كالنسيم اذا مرا
بها سقسقات اللحن والحلم والرؤى ... كما تنبت الافياء والحب والقطرا
بروحي شفاها كالغروب احمرارها ... لكم جئتها والشوق اعصرها عصرا
وكم سلسلت منها الحياة وسلسلت ... وكم نطفت منها الحلاوة والعطرا

الم تر ان الله يهدي عباده ... الى " النحر " فالثم في غلائلها النحرا
اذا ضحكت كان الربيع وزهره ... وان غضبت قل: هاهي الشقوة الكبرى
جداول تجري لفظها وحديثها ... وقدتجرف الاكباد في ذلك المجرى

اذا لفها زندي اليمين ، ولفها ... اخال هناء الكون في ساعدي اليسرى
وان ضمها صدري اليه حسبتنا ... رؤوما تلاقي بعد غربته البكرا
اليف يروي بالعناق اليفه ... ويسقيه من اضلاعه اللهفة السكرى
عناقك دنيا ، افقها حلم شاعر ... يرى القلب فيها لايجوع ولا يعرى

حبيبان جاءا الكون شفعا فمن يرى ... سوى ان رب الخلق صاغهما وترا

بعينيك ، بالنور المقدس فيهما ... بفيك الذي اغرى الكؤوس بما اغرى
بمعجز نهديك اللذين تسكورا ... من الزبد الحالي ، الى لهب الصحرا
دعيني على عينيك ذكرى مطلة ... اعش هانئا فيها ، فقد تنفع الذكرى

ابراهيم منصور

دولا كروا بين الفـــن والادب

طارق الماضي



قبل ان اتحدث عن / دولاكروا/ لا بد ان اردد ماقاله الفنان (مانيه) الذي عرفه القرن التاسع عشر كمتمرد على التقاليد الفنية السائدة في عصره والذي طور الفن التشكيلي بموضوعاته وصياغته ليصل الى الصيغة الانطباعية لقد قال هذا الفنان العبقري :

" اذا لم يكن للمصور شيء جديد يريد ان يقوله فخير له ان يصمت ، ان المرء ليصبح مصورا الا اذا كان حبه للتصوير اضعاف حبه لاي شيء وليس يكفي ان يعرف حرفته .... .. بل لا بد له من ان يكون متحمسا لها منفعلا بها "

" مانيه "

أما (ايجين دولاكروا) فهو ينتسب الى المدرسة الرومانتيكية ويعتبر من روادها العباقرة .

لقد جاءت الرومانتيكية لتحل محل العقائدية ( ) التي كانت سائدة في ذلك العصر وجاءت لتحطم القواعد التي وضعتها الكلاسيكية الحديثة ( ) ورفض (دولاكروا) أفكار هذه المدرسة واتبع الرومانتيكية حيث الاحاسيس الشخصية والانفعالات والتناقضات والتداعيات الداخلية تلعب دورا هاما .

وتبقى الطبيعة الملاذ الوحيد للذات ( ) بحيث لا يمكننا فصلها عن الموضوع ( )

فالفنان يعيش مع الطبيعة ويتعايش معها ولا يمكنه الانفصال عنها وقد كان شكسبير ينتسب للرومانتيكية منذ القرن السادس

عشر وازدهرت هذه المدرسة في انجلترا مع الشاعر الانكليزي بايرون ( ) وكذلك في المانيا مع غوتيه ( )

ولد دولاكروا عام ١٧٩٨ وتوفي عام ١٨٦٣ منذ اقامته في بلجيكا عام ١٨٥٠، واطلع على اعمال روبنز ( ) وانتسب الى المعهد عام ١٨٥١ وكان يشق طريقه الفني ببطء وتريث وبعين فاحصة حتى عام ١٨٦٣ عندما توفي عام ١٨٦٣ .

تقنيته واعماله الفنية :

كان يستعمل في لوحاته تارة الشكل الهرمي وتارة اخرى الشكل المنبسط اما الوانه فهي على الغالب الاحمر والاصفر والازرق وهذه لها مدلالتها ورموزها الخاصة عنده .
اما بالنسبة لاعماله فهي كثيرة ومتنوعة جدا منها :
سلطان المغرب ( )
(١٨٦٢ - ١٨٥٦) نساء تركيا (
) ١٨٥٤ .

ولا بد ان لا ننسى ابدا ان هذا الفنان قد تأثر بشكل او بآخر بالفلكور الشرقي سيما عندما زار الجزائر وجسد الطابع العربي في فنه .
وقد ابدى اعجابه بهذا البلد وبعاداته وتقاليده ، وبامكاننا ملاحظة ذلك من خلال لوحته (نساء الجزائر)
( )
وحاول من خلال لوحته هذه ان يلفت نظرنا الى الملابس التي ترتديها تلك النساء مستخدما الوانا رائعة تبين وتبرز الطابع الشعبي الذي يتسم به ذلك البلد لقد برع (دولاكروا) في رسم هذه اللوحة واعطاها الوانا زاهية وليخيل للناظر اليها انه بالقرب من ذلك المنزل الجزائري الشعبي والذي توجد به تلك النساء.
واما في لوحته الشهيرة (الحرية تقود الشعب) ( )
استطاع ان يمزج الادب بالفن ولم يفصل احدهما عن الاخر لذلك استمد بعض شخصيات اللوحة من رواية (البؤساء) لفكتور هيجو ( ) فنرى (فافروش) بطل الرواية هذا الفتى الذي انضم الى الشعب ابان الثورة مجسدا في هذه اللوحة فها هو يقف مثل جبل ( ) ويحمل في يده مسدسا رمز المقاومة وخلفه تقف امرأة تحمل العلم الفرنسي انها تمثل الحرية بكل معانيها فأول ما يلفت نظرنا في اللوحة ذلك العلم بألوانه الزرقاء والحمراء والبيضاء وقد تجلت براعة (دولاكروا) من خلال اللمسات التي وضعها بشكل متقن والالوان ايضا كان لها مدلولها الخاص كما في الشكل فالاحمر هو رمز الثورة والجانب اليساري من اللوحة كانت تغطيه بعض اللمسات السوداء دليل الموت والقهر والاضطهاد .
والشكل الهرمي في هذه اللوحة بالذات يلعب دورا هاما فقاعدة الهرم تمثل الشعب وبالاخص (المرأة) وهي تحمل العلم ومن وراءها تسير الجموع .
اما قمة الهرم فهي (العلم) ومعناه الحرية بمعانيها المطلقة .
على اية حال ان هذه اللوحة هي بمثابة اعلان او تصريح يراد به احياء ذكرى يوم ٢٨ تموز ( ) عندما تمرد الشعب وخلع عرش (البوربونيين) ( )

ومما لا شك فيه ان هذه اللوحة تمثل اول موضوع سياسي للفن الحديث .
ولا بد ان لا ننسى ايضا ان دولاكروا رسم لوحات مستوحاة من الاساطير ( ) كما فعل في لوحته (موت ساردا نابال) ( )
لقد جسد الاسطورة في لوحة فنية تنبض بالحياة وتعج بالناس وكأنها الحقيقة ذاتها .

*اعداد وتقديم
طارق الماضي

الشكل (١) (اللوحة)
* (البوربونيين) اسرة حكمت فرنسا قديما

جسم

انور الجندي

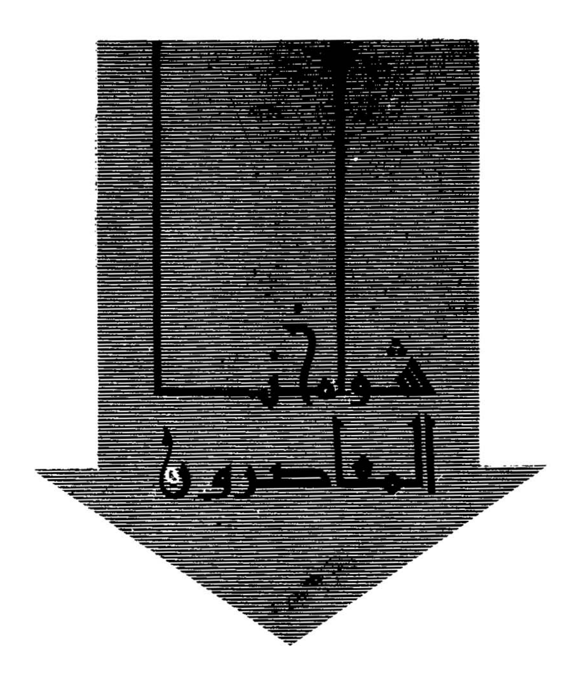
الى السمراء النائمة في ظلال الارز

متعيه بجسمك المخمور واحمليه على جناح الشرور
واتركيه على نهودك حيرانا ، وغذيه باللظى والسعير
سئم العمر فابعثيه وليدا وتخطي به رقاب الدهور
انه شاعر ، وما خلق الشاعر الا لاعين ونحور
عبد الجسم والصدور وهامت نفسه بالمحجب المستور
فهو والروح في عراك مذيب وهو والعقل في صراع مرير

ايه يا جسم ، يا معطر ، يا معبود ، ياكعبة الفؤاد الكسير
يا معين الحياة ينضح بالامال ، واللهو ، والمنى والحبور
يا صلاة الجفون ، في غمرة الالام ، ما بين غرة وغرير
يا لهيب الشفاه يحرق اكبادا ، ويلوي بالمدنف السكير
انت قدوس ، آنت آلهة الاشواق ، انت الملاذ للمستجير
لا تدعني يا جسم في شبح الالام ، وارحم حشاشة المقهور
ذبت للاثم يا نبي ضلالاتي ، فخذني غلالة لسرير
آنا ظمآن للتأفف ، للآهات ، للوعد ، للدنى ، للفتور
ضقت بالعمر . . . يا نهودا ، فرديني غناء على شفاه الثغور

آه يا جسم ، كم أعذب بالاحلام ، والحلم آفة التفكير
لا أغالي اذا عبدتك مختارا ، وحسبي من الحياة شعوري
آنت دنياي ، انت ذاتي ، انت الكون في طرف اغيد مهجور
انا ان كنت كافرا فلانـي لم أمتع بنشوة التكفير
آنت عيني ، ونور عيني ، وهيهات تطاق الحياة من غير نور

انور الجندي



العلامة عبد القادر مبارك

١٨٨٧ ـ ١٩٤٥

العلامة عبد القادر المبارك
١٨٨٧ - ١٩٤٥ م
ركن هام من اركان النهضة الادبية في سورية



دراسة بقلم : فضل عفاش

عبد القادر المبارك
من ائمة اللغة والادب ، عالم واديب وقف حياته من اجل لغة الضاد ، فنثر من علمه الغزير واطلاعه الواسع وحفظه المدهش ما دهش ابناء عصره ، حتى غدا مدرسة خرجت العالم المفكر.. وساهمت فى نضالها مع الثائر ضد المستعمر الغاشم الى ان علا الى الافع طبقات البلاغة والتضحية .
واشتهر " بالقاموس السيار " لانه اعلم أهل زمانه بالمفردات فقال عنه خصومه انه نسخة حية من القاموس فقد عرف عنه انه كان يحفظ فقه اللغة والالفاظ الكتابية والقاموس المحيط عن ظهر قلب .. فوقف حياته للغة العربية حقق بها ودقق لها فكان حجتها الدامغة وحافظ اخبار اهلها بفصاحة لسانه وقوة بيانه العذب واسلوبه الرائع .

أسرة المبارك :
آل المبارك ، اسرة معروفة من اشراف الجزائر هاجرت سنة ١٨٤٢ قبل وصول الامير عبد القادر الى دمشق .

هاجر والد الاسرة " الشيخ المبارك " ، وحين وصلت الباخرة التي تقله الى بيروت وضعت زوجته الفاضلة ولدا اسماه محمدا وهو المعروف بالشيخ " محمد المبارك " ، والد العلامة عبد القادر المبارك .
وكان للشيخ المبارك ولدين آخرين احدهما الشيخ محمد الطيب المدفون في جادة " الطيب بالمزة قرب دمشق والاخر هو محمد المنوّر الذي هاجر الى اليمن واستقر هناك .

حياته :

ولد عبد القادر بن محمد بن محمد المبارك في دمشق سنة ١٨٨٧ . طلب العلم على والده الشيخ محمد في سن مبكرة ذلك ان والده عالم واديب ، اشتهر في عصره وشارك في النهضة العلمية وفتح المدارس خلال القرن التاسع عشر مع زميله العلامة الشيخ " طاهر الجزائري " وله عدة رسائل ادبية اشهرها " بهجة الرائح والغادي في احاسن محاسن الوادي " .كما طلب العلم على كبار علماء عصره في دمشق وحضر الحلقات العلمية التي كان ينظمها والده الشيخ طاهر الجزائري وتوسع في دراسة العلوم الدينية والعربية والتاريخ العربي عامة ، والاسلامي خاصة .
فتلقى من هذين العالمين كثيرا من المعارف اللغوية والادبية ودرس مدة قليلة في المدرسة الرشدية العسكرية ثم تابع دراسته على الطرق القديمة فقرأ على شيوخ العصر وعلمائه كالعلامة امين سويد والشيخ بدر الدين الحسني ، والعلامة عطا الكسم وغيرهم ثم عكف بعد ذلك على دراسة اللغة بنفسه وصرف لهذه اللغة وقتا طويلا في حياته الاولى .
وفي عام ١٩٠٥ عمل على افتتاح مدرسة خاصة في حي العمارة من احياء دمشق القديمة وفي سنة ١٩١٠ عين استاذا للغة العربية وآدابها في المدرسة السلطانية الاولى بدمشق وبقي فيها يعلم العربية ، ثم عكف بتدريس الدين وتخرج على يده عدد كبير من الشباب المثقف في دمشق الذين أصبحوا فيما بعد من اعلامها وقال واحد من هؤلاء عنه .
" كان المبارك اماما في اللغة ومرجعا فيها قيد اوابدها ، وجمع شواردها ، وحفظ شواهدها ، وكان أعلم العرب بالعرب عرف أيامهم ووعى اخبارهم وروى اشعارهم تجس اذ تجالسه وتسمع منه كأن الاصمعي او ابا عبيدة تمثلا لك في جبته .
وعندما انشئت المدرسة الحربية في عهد حكومة فيصل عين عبد القادر المبارك استاذا للغة والتاريخ العربي .
وانتخب عضوا في لجنة التعريب التي كان لها قفزة مهمة في تعريب المصطلحات في الادارة. وحين طلبته المدرسة السلطانية الاولى عاد اليها مساهما من جديد في عطائه اكثر وخبرته العالية ، وهمته الكبيرة .
ثم انتخب عضوا في مجمع اللغة العربية في دمشق " المجمع العلمي العربي " منذ تأسيسه عام ١٩١٩ .
والقى في قاعة المجمع عدة محاضرات منها محاضرتان عن ابي خلكان وقصصه في تاريخه ومحاضرة عنوانها الشعر الخالد واخرى، في المشجر في اللغة وغيرها .
وفي العام ١٩٣٠ كلف للتدريس في مدرسة الاداب العليا وظل فيها يدا معطاء ساهمت في بناء المستقبل الافضل ، فكان على ذلك قديرا .
وعندما بلغ الستين من عمره احيل على المعاش سنة ١٩٤٠ فعهد اليه بعد ذلك تدريس اللغة العربية والدين في دار المعلمين التي احدثت عام ١٩٤٢ .
وظل المبارك مغرما بالعربية .. مغرما بغريبها فتراه يكثر من استعمال هذا الغريب في مفرداتها وكأنه يريد جعل الغريب سهلا ..
وقد نظم قصيدة ضمنها الكثير من المفردات الغريبة بعنوان " احدى العبر بين البشر " وهكذا بقي دؤوبا يبحث دوما عن الجديد لخدمة اللغة والفكر والبيان حتى وافته المنية سنة ١٩٤٥ .. وانطوت بحياته صفحة وهاجة اطلت منذ مطلع حياتها للعلم . والبيان ..
رحم الله المبارك ، على ما قدم للعربية أجمع من فضل شكور .. فكان ركنا مهما من اركان النهضة الادبية في سورية .

من آثاره :

آثاره القلمية قليلة والمطبوع منها اقل منها ـ شرح المقصورة الدريدية في اللغة (وهو محفوظ)
ـ فوائد الادبيات العربية وهو مجموع نصوص ادبية مشروحة .
ـ كتاب المعلومات المدنية المترجم عن التركية للعربية .
ـ وله قصائد قليلة .. لانه من النادر ما ظهرت فيه الروح الشعرية .
من هذه القصائد " احدى العبر بين البشر "
" بكر الشرق "
" في اللغة "

وهذه مقتطفات من شعر المبارك :

لم يا مهيب الجد هيب الراقي
ألحسن منظر ثوبه البراق

لم سادك الراقي سيادة قاهر
طب بما تلفيه[٣] غير مطاق[٤]

ألسحن منظر ثوبه طار الذي
حذق امتطاء الريح كل حذاق

لم لم يطر من اشبه الطاووس في
حب الفخار يلبس ابهى طاق

لم ادرك العلياء ذاك وضل ذا
نهج الجذود فحل في الاعماق

لم ذاك عد العبقري فطانة
وابن الذكاء مظنة استحماق

لم ذاك للقطب اهتدي وابن الهدى
حيران بين ربى وبين سواقي

لم صار ذاك مفوها ولسان ذا
في حالة المؤود بين طياق

لم اصبحا متباينين تباينا
أنساك مالهما من الاعراق

لم ذاك في الجو استقل وذا عن ال
كرسي ازلق ايما ازلاق

لم ذاك فاق الحي مغتبطا وذا
مذ عاش ذاق الموت شر مذاق

لم ذاك خص بالثراء وشاق ذا
بطن الثراى من شدة الاملاق

لم ذاك راعي الاقتصاد وذا عصى
أمريه في كسب وفي انفاق

لم ذاك نال كما اشتهى غنما وذا
مانال الا أسوأ الاخفاق

لم ذاك أصمى اذ رمى وسهام ذا
فجعت بأنصلها و بالافواق

لم طعم حنظل ذاك طاب وأصبحت
نخلات هذا مرة الاعذاق

لم ذاك أنفق كل سلعته وذا
لم يحظ غير نفاقة بنفاق

لم ذاك روح سوق صاحبه وذا
لأخيه هيا أكسد الاسواق

لم ذاك واسى يائسيه وقلب ذا
كالصخر بل أنأى عن الاشفاق

لم ذاك جن بقومه وبلاده
عشقا وذا كل على العشاق

لم ذاك وافق شعبه فأفاده
عزا وهذا ضد كل وفاق

لم ذاك امسى عين رفقته وذا
مع اهله كالشوك في الاحداق

لم فرجت كربات ذاك وكربَ ذا
ما زال منه كآخذ بخناق

لم أسعفت ذاك الصروف ولم يجد
ذا مسعفا الا جريح مآقي

لم رافقت ذاك الجدود وغادرت
هذا على خطر بغير رفاق

لم ذاك رفه في الفلاة وذا قضى
عطشا بجانب نهره الدفاق

يا طالبا عرفان ما افضى الى
حالي كلا هذا وذاك الراقي

سل ما اعدا من صنوف قومي وما
عبأ من الاوزار والاوساق

اوليس في القسطاس بينهما كما
بين الجبال وبين بضع اواقي

أو ليس بين مغبتي عمليهما
أقصى مدى معه استحال تلاقي

سل سنة الله التي من يعصها
تؤذن سعادته بطول فراق

سلها فكل الحادثات محاطة
من مقتضى احكامها بنطاق

سلها تكن من عدلها ببيانها
اسباب ما بيهما على استيثاق

من منهما في درس فن واحد
يقضي جميع العمر باستغراق

من منهما للعلم والعليا سخا
بالمال من ذهب ومن اوراق..

اوليس بين مغبتي عمليهما
اقصى مدى معه استحال تلاقي

صفات ومواقف .. من حياة العلامة " عبد القادر المبارك "

وكانت لعبد القادر المبارك جلسات مسائية في بيوت بعض اصدقائه وهي اشبه ما تكون بندوات علمية ، رفيعة تجري خلالها قراءات من كتاب يختاره لهم ويعلق على ما يقرأويشرح ويستطرد ولهذه الامسيات الادبية متعتها بالنسبة للحضور فيها .

* كان بيته في حي العمارة قرب الجامع الكبير " جامع بني امية " يعج دوما بالكثيرين من مجاهدي الثورات الفلسطينية وخاصة ثورة ١٩٣٦ فكان يساعدهم على حل ما يتعرضهم من صعاب ويسعى لتأمين ماهم بحاجة اليه من سلاح وغيره ويتعاون في ذلك مع صديقه الشيخ المجاهد محمد الاشمر

* وخلال الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥-١٩٢٧ كان ينقل الى بعض قوادها اخبارا عن الفرنسيين واستعداداتهم .. ماينقله اليه بعض المغاربة من الجزائريين المجندين في جيش المستعمر الفرنسي فيرتب الثوار انفسهم بناء على تلك المعلومات التي نقلها العلامة عبد القادر المبارك ..

وكثيرا ما استطاع عن طريق اولئك الجزائريين تأمين السلاح للثواورونتيجة لذلك ارتبط عبد القادر بصداقات عميقة مع المجاهدين الثورا وقادتهم وفي مقدمتهم محمد الاشمر ، وسلطان باشا الاطرش .

كما كانت للمبارك مواقف وطنية مع طلابه حيث يملأ نفوسهم بالاباء للوطن ، والنضال من احل الحرية والاستقلال ويذكرهم من الشواهد ما يزيد حماسهم ونضالهم خلال فترة الانتداب الفرنسي على سورية .

* وكان له منزلة خاصة ورفيعة في عصره لما عرف عنه .. فكان مفزعا للناس في امورهم ومشكلاتهم وكثيرا ما انتدب لاصلاح ذات البين او للخير العام فكان

قوي النفوذ في نفوس مجالسيه .. فاذا حدث ابرع في حديثه .. بصوته الجهوري القوي النبرات الفصيح اللسان .

* لقد شغف عبد القادر بدراسة اللغة منذ ان كان صغيرا ، واشتهر باطلاعه الواسع عليها .. وتفوقه فيها حتى عرف بالقاموس السيار " فتولع بالشعر القديم وخص الشعر الجاهلي فراقت نفسه للخنساء .. وامرؤ القيس وعنترة ، ففي في مطلع حياته قام بشرح القصيدة اللغوية المشهورة بالمقصورة الدريدية .. فشرحها شرحا وافيا .. ولم تطبع بعد وعلى الغالب انها محفوظا غير مطبوع .

* كما اشتهر عبد القادر المبارك ، بالسيرة وتراجم الرجال فكان هو وحده خزينة عصره ، هذه الخزينة التي حفظت اخبار اعلام البلاد .. واهتم بشكل خاص بمطالعة كتب التاريخ والاجتماع والتراجم حتى عرف ما ورد فيها من اخبار امثال " مروج الذهب " ، ابن عساكر .

* وقال فيه تلميذه ظافرالقاسمي :

" اخذ عليه خصومه انه كان عالما لميكن استاذا وان طريقته في التعليم لاتقرها اصول التدريس الحديثة .. ولقد نسي هؤلاء انه استاذ لغة سماعية وان مايمكن ان يستفيده المرء بالسماع ، كثيرا ما يكون ابقى واقوى اثرا في المطالعة والحفظ ولا ادل على ذلك فما نقرأ في كتب الادب عن هجرة اعلام الشعراءوالكتاب القدامى الىالبادية ليأخذوا اللغة عن الاعراب من افواههم ولأني لأجزم ان اثر شيخنا رحمه الله في ما تحدث به الى الطلاب كان اثرا عميقا اذا ضاف به بعض الطلاب قبل ثلاثين سنة فانهم يحمدونه في هذه الايام ..

* وقال فيه المرحوم الشاعر خير الدين الزركلي في كتابه " الاعلام " :

عبد القادر المبارك - اديب غزير العلم بمفردات اللغة ، جزائري الاصل مولده ووفاته في دمشق .

وتبقى حياة المبارك شامخة في تراثنا الادبيابد الدهر شاكرا الدكتور مازن المبارك علىماقدمه من مساهةلاتمام هذه الدراسة .

فضل عفاش

الراقي : من رقي اي صعد وعلا ومن رقا اي ارتفع في طيرانه .
طب : اي ماهر حاذق خبير
تلفيه : مضارع الفاه اي وجده
مطاق : مستطاع مقدور عليه
حذق : الشيء اتقنه وبرع في معرفته ومن مصادره الحذاق .
امتطاء الريح :ركوبها
طاق : ثوب
مفوه : منطيق
المؤود :المدفون وهو حي
تباينا : تباعدا
الاعراق : الاصول
استقل الطائر : ارتفع
الاخفاق : الخيبة
انصل السهام : حدائد اعاليها
افواقها : فروضها في مواضع الإوتارمنها
الاعذاق : عناقيد التمر

احلام

الياس ندور

ما لهذي الارواح ترقص للصبح المندى على حفاف الوادي ؟
حوم سربها ، على رقرقات الماء في الدوح ، حوم حران صاد
والمسيل الضحضاح متئد الاقدام يجري على هدى ورشاد
حاملا للزروع من نعم الحب سلافا ، وقبلة للوهاد
يتلوى بين الزنابق ، والاوراد غيرى تحفه بالبجاد
وانعكاس الشطين زركش ردينه بهاء كحلة الاوراد
فتهادى للبحر مصدره المنشود ينساب حالما بالمعاد
يتوارى شيئا فشيئا الى ان يتوارى على مدى الابعاد
ما لهذي الارواح ترقص للصبح المندى على حفاف الوادي ؟
حوم سربها على دفقات الماء في الدوح حوم حران صاد ؟

أتراها ظمأى تفتش عن ماء قراح يبل منها الاواما !
أم هو السغب ساقها اليوم للسفح فجاءت تبغي لديه طعاما ؟
بين رف النسرين والغار والشيح المحنى وهدهدات الخزامى
أم تراها ذا اليوم هامت بهذا الطل والعرف عندما الليل هاما
فتبارت والفجر يبعث في الاجواء سحرا مذوبا وسلاما
تتشكى لواعج الوجد والاشواق والبعد ، نارها والغراما
حوم سربها على رقرقات الماء في الدوح تبتغيها التهاما
ما لهذي الارواح ترقص للصبح المندى تدلها وهياما ؟ ؟؟

أهي سكرى بغنة وقصيد ؟ أهي نشوى بخمر كأس الشقيق ؟
رنحتها الصهباء ليلا فهبت تنشر الحب فوق دوح وريق ؟
عندما باغت الضيا عاريات من بنات الارواح وسط الطريق
راقصات على اثير ندي راقص في الفضاء حر طليق
سابحات على خضم من الالوان يرفض تحت جنح الشروق
يتنشفن في لهاث من العرف طري على الشعاع عليق
خفن انسا تراقب البض من جثمانهن المهفهف الممشوق
فترجرجن هاربات الى الاظلال يجثمن تحت ذيل العبوق
ما لهذي الارواح تهزج للصبح المندي على اثير رقيق ؟؟
راقص سربها على هاربات الظل في الدوح كالسراب السحيق ؟؟

ـ نحن احلامك الحسان العذارى شاعر الحب والسنى والسماء
نفضتنا الاشواق في مبسم الشمس طيوفا ، وخمرة الاجواء
نخشى حر النهار يلفح ريشا من جناح لنا رقيق الغشاء
فنهاديك في الظلام حفيفا ورفيفا لدى تهادى المساء
ونغنيك قطعة من نشيد علوي ونحن خلف الخباء

ـ يا بنات الارواح رفي وغني وانقذي النفس من عناء وحزن
أنت من ميعة الضياء رسول شاد بالحسن والهوى والتمني
لا تخافي فقد برتك يد الله مثالا لكل زهو وحسن
والقوافي مرنحات خرادا تترامى عليك في سحر جن
أنت مني فمتعيني بوصل عبقري ، وزوديني بلحن
اومريني اطر اليك اشتياقا ، بجناحين من هيام وفن

الياس ندور

بول ايلوار

ايتها الحرية

ترجمة: صلاح الدين برمدا

على دفاتر تلمذتي
على مسند كتابتي والشجر
على الرمل على الثلج
اكتب اسمك

على كل الصحائف التي قرأت
على كل الصحائف البيضاء
حجر دم ورق أو رماد
أكتب اسمك

على الصور المذهّبة
على أسلحة المحاربين

على تاج الملوك
اكتب اسمك

على الادغال والصحراء
على الأعشاش على الرتمات(١)
على رجع طفولتي
اكتب اسمك

على بهجات الليالي
على خبز النهارات الأبيض
على الفصول المترابطة
اكتب اسمك

على كل قصاصاتي الزرقاء
على الغدير كالشمس الراكدة
على البحيرة كالقمر الحيّ
اكتب اسمك

على الحقول في الأفق
على أجنحة الطيور
وعلى تحوّلات الظلّ
اكتب اسمك
على كل هبوب فجر
على البحر على السفن
على الجبل المختلّ
اكتب اسمك

(١) الرتمة : نبتة زينة .

على زبد الغمائم
على انفصادات العاصفة
على المطر المدرار التفه
اكتب اسمك

على الأشكال البرّاقة
على أجراس الألوان
على الحقيقة المادّية
اكتب اسمك

على الدروب المستيقظة
على الطرقات المنبسطة
على الساحات الفائضة
اكتب اسمك

على المصباح المُوقَد
على المصباح المُطفأ
على بيوتي مجمّعة
اكتب اسمك
على الثمرة المشطورة
للمرآة ولغرفتي
على سريري القوقعة الفارغة
اكتب اسمك

على كلبي النهم الودود
على اذنيه المنتصبتين
على قائمته الرفلة
اكتب اسمك

على مقفز بابي
على الأشياء الأليفة
على دفق النار المباركة
اكتب اسمك

على كل جسد ممنوح
على جبين أصدقائي
على كل يد تمتدّ
اكتب اسمك

على زجاج المفاجآت
على الشفاة المُصغية
في ما يتجاوز الصّمت
اكتب اسمك
على ملاجيء المهدومة
على فناراتي المنهارة
على جدران سأمي
اكتب اسمك
على الغياب بلا شهوات
على العزلة المتجردة
على خطوات الموت
اكتب اسمك
على العافية المسترجعة
على الخطر الممّحي
على الأمل بلا ذكريات
اكتب اسمك
وبقدرة كلمة
استأنف حياتي
اني خلقت لأعرفك
لأسميك

حرّية

الشاعر

حلقة توصل بين هـذا العالم والآتي ،منهل عذب تستقي منه النفوس العطاش، شجرة مغروسة على ضفة نهر الجمـال ذات ثمار يانعة تطلبها القلوب الجائعة ، بلبل يتنقل على أغصان الـكلام وينشد أنغاماً تملأ خلايا الجوارح لطفاً ورقـة ، غيمة بيضاء تظهر فوق خط الشفق ثم تتعاظم وتتصاعد وتمـلاء وجه السماء وتنسكب لتروي أزهار حقل الحيـاة ، نور ساطع مـلأته زيتا عشتروت الهة الحب وأشعله أبولون آله الموسيقى ،

وجد يرتدي البساطـة ويتغذى اللطف ، ويجلس على أحضـأن الطبيعة ليتعلم الابتداع ، ويسهر في سكينة الليل منتظراً هبوط الروح ، زراع يبذر حبات قلبه في رياض الشواعر ، فتنبت زرعاً خصيباً تستغله الانسانية وتتغذى به ،

هذا الذي لايطلب من البشر الا ابتسامة صغيرة ، والذي تتصاعد انفـاسه وتملأ الفضاء أشباحاً حية جميلة والناس تبخل عليه بالخبز والمأوى .

فالى متى ايها الانسان ـ الى متى يا أيها الكون تقيم من الفخر بيوتـاً لـلالى جبلوا أديم التراب بالدماء وتعرض بتهامل عن الذين يهبونك من محاسن انفسهم سلاماً ووداعة ؟

وحتى م تعظم القتلة والذين احنوا الرقاب بنير الاستعبـاد وتتناسى رجـالا يسكبون نور الاحداق في ظلمة الليل يعلموك ان ترى بهاء النهار ويصرفون العمر بين مخالب الشقاء كيلا تفوتك لذة السعادة . وانتم ياايها الشعراء ، ياحياة هذه الحياة ، قد تغلبتم على الاجيال قسراً عن قساوة الاجيال ، وفزتم باكليل الغار غصبـاً عن اشواك الغرور ، وملكتم في القلوب وليس لملككم نهاية وانقضاء .

يا ايها الشعراء . جبران خليل جبران